نداء الله الكريم في سورة التحريم

[دراسة تحليلية موضوعية]

د / خالد سعيد أحمد البسيوني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نادى عباده رفعةً لشأنهم ، وقطعاً لأعذارهم وهداية إلى الطريق المستقيم ، وتبكيتاً للعاصين ، ورحمةً للمؤمنين ومحبةً لسيد المرسلين — ﷺ —.

ثم الصلاة والسلام على محمد — ﷺ — الرسول المصطفى ، والنبي المجتبى ، وخير الورى ، وأفضل من ناداه مَنْ على العرش استوى .

وبعد ،

فإنَّ النِّداء في كتاب الله — تعالى — صورة من صورِ بلاغته ، ووجهٌ من وجوه بيانه ، وطريقة من طرق وعظه وإرشاده ، ووسيلة من وسائل تشريعاته ومنهجٌ من مناهج أوامره ، ونواهيه ، ونذارته ، وبشارته ، ووعده ، ووعيده ... الخ

وفي هذه الدراسة أحاول — بعون الله وتوفيقه — إلقاءَ الضوء على المعاني التفسيرية للنداء من خلال سورة التحريم وتشتمل هذه الدراسة على النقاط التالية :

أولاً : تعريف النداء وأدواته .

ثانياً : بيان سرِّ مجيء القرآن الكريم بأداة النداء " يا " من بين أدوات النداء الأخرى .

ثالثاً : معنى " أي " وحكمة ذكره في النداء ، وكذا " ها " التنبيه وحكمتها .

رابعاً : أنواع النداء في القرآن الكريم ومغزاه .

خامساً : إلقاء الضوء على سورة التحريم من حيث تسميتها بهذا الاسم وسر ذلك ومكان نزولها وموضوعها بوجه عام ومناسبتها لما قبلها .

سادساً : استعراض النداءات الإلهية في سورة التحريم .

والله أسألُ التوفيقَ والسداد

وصلى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم

أوّلاً : تعريف النداء وأدواته :

النداء لغة :الدعاء بأيّ لفظ.

واصطلاحاً : طلب الإقبال بحرف نائب مناب " أدعو " لفظاً أو تقديراً [1].

والمراد بالإقبال : مطلق الإجابة فدخل (يا الله) ولا تناقض في (يا زيد لا تقبل) لأنّ " يا " لطلب إقباله ليسمع النهي ، فلم يتوجه له النهي إلا بعد إقباله ولا ينادى في الحقيقة إلا المميز لأنه الذي تتأتى إجابته وأما غيره كـ(يا جبال) و (يا أرض) فاستعارة مكنية حيث شبه المنادى بالمميز في النفس و" يا " تخييل [2].

ولك أن تقول : من الجائز أنّ الله لما ذكر حال الخطاب تمييزاً فلم يقع النداء إلا لمميز [3].

ولمّا كان النداء من جملة المعاني الإنشائية الطلبية فقد اعترض نيابة حرف النداء عن " أدعو " بأنّ " أدعو " خبر ، والنداء إنشاء .. وأجيب بأن " أدعو " تُنقل " إلى الإنشاء [4].

أمّا أدوات النّداء فهي كما ذكرها ابنُ مالك في ألفيته :

وللمنادى النّاءِ أو كالنّاءِ " يا " * و " أيْ " و " آ " كذا " أيا " ثم " هيا "

والهمز للداني وَ " وا " لمن ندب * أوْ " يا " وغَيْرُ " وا " لدى اللبس اجتنب [5]

١ــ[المطول صـ ٤٣٠ للعلامة التفتازاني / ط / دار الكتب العلمية / بيروت . وحاشية الصبان على الأشموني ٣ – ١٩٧ مكتبة الصفا / الأولى ١٤٢٣ هـ ــ ٢٠٠٢ م].

٢ــ[حاشية الخضري على ابن عقيل ج ٢ – ٧١ / ط / الحلبي].

٣ــ[حاشية الصبان ٣ ــ ١٩٧].

٤ــ[المطول صـ ٤٣٠ وحاشية الصبان على الأشموني ٣ – ١٩٧].

٥ــ[يقول ابن عقيل في شرح هذين البيتين من الألفية :" المعنى : لا يخلو المنادَى من أن يكون مندوباً أو غير مندوب ، فإما أن يكون بعيداً أو في حكم البعيد – كالنائم والسّاهي – أو قريباً

تلك هي أدوات النداء يتفاوت استخدامها حسب بُعْد أو قرب المنادَى من المنادي لكن ما له التميز من هذه الحروف هو " يا " فهي الأفشى في العربية ، والأكثر في استعمال أهلها الخالص عند النّداء ولا يُقدّر عند الحذف غيرها ، وتتعين في نداء لفظ الجلالة ، لبعد مكانته مع قربه الشديد منا ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ [1] ﴾

وتتعين أيضاً في باب " الاستغاثة " نحو : يا لله . كما تتعين في نداء أيها و أيتها "[2]

ولم يأت في التنزيل المجيد النداء إلا بها ودعوى أن الهمزة في قولة ــ تعالى ــ ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ [3] ﴾ الآية على قراءة من خفّف الميم [4] هي حرف نداء [5].

، فإن كان بعيداً ، أو في حكمه ، فله من حروف النداء : يا و أي و آ ، و أيا وهيا ، وإن كان قريباً فله – وا – نحو : وازيداه " و " واظهراه " و " يا " أيضاً عند عدم التباسه بغير المندوب فإن التبس تعينت " وا " وامتنعت " يا " هـ.[شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ص ٢٥٦].

١ــ[سورة ق آية رقم . ١٦].

٢ــ[حاشية الخضري على ابن عقيل ج ٢ – ٧١ ، ومغني اللبيب ٢ ــ ٣٧٣ لـ/ ابن هشام / ط / المكتبة العصرية / بيروت ١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧ م ، والأساليب الإنشائية في النحو العربي / عبد السلام هارون . ص ١٣٧ / ط / دار الجيل / بيروت ١٤١٠ هـ ــ ١٩٩٠ م].

٣ــ[سورة الزمر آية رقم : ٩].

٤ــ[قرأ نافع وابن كثير وحمزة : (أَمَنْ) خفيفة الميم . وقرأ الباقون بالتشديد وهما سبعيتان متواترتان] [حجة القراءات لـ/ عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة " أبو زرعة " ص ٦٢٠ – ط – مؤسسة الرسالة – بيروت / الثانية ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٨٢م ، ومعاني القراءات ، لـ/ أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ص ٤٢٠ – ط – دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى ١٤٢٠ هـ ــ ١٩٩٩ م].

٥ــ[القراءة بالتخفيف قراءة متواترة . وحمل الهمزة في هذه القراءة على أنها حرف نداء هو قول الفراء حيث يقول : من قرأ مخففاً فمعناه : يا من هو قانت . والعرب تدعوا بألف

دعوى غير صحيحة .. إذ الهمزة في الآية هي همزة الاستفهام المحذوفة المعادل . والتقدير : أمَنْ هو قانت " خير " أم هذا الكافر ، أي المخاطب بقوله ـ تعالى ـ :﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار [1] ﴾ فحذف شيئان : معادل الهمزة والخبر [2]

ثانياً : بيان سرّ مجيء النداء في القرآن الكريم بـ(يا) دون بقية أدوات النداء .

أقول وبالله التوفيق :

بيان السرّ في ذلك يتبين من خلال الآتي :

أولاً : المشهور في حرف النداء " يا " أنّه وضع لنداء البعيد ليس فقط عند النحويين [3] ـ كما سبق ذكره في بيت ابن مالك : وللمنادى الناء أو كالناء " يا".. الخ ـ بل والمشهور أيضاً عند أكثر البلاغيين [4] وجمهور المفسرين كذلك [5].

كما تدعو بياء ، فيقولون : يا زيدُ أقبل ، أزيدُ أقبل ...

فيكون المعنى ـ على هذه القراءة ـ مردوداً بالدعاء كالمنسوق ؛ لأنه ذكر الناسي الكافر ثم قصّ قصة الصالح بالنداء ، كما تقول في كلام : فلان لا يصوم ولا يصلي ، فيامن يصوم ويصلي أبشر. [معاني القراءات ٤٢٠]

ويذكر ابن هشام في المغني أنّ قول الفرّاء يقربه أمران : أحدهما : سلامته من دعوى المجاز ، إذ لا يكون الاستفهام منه ، تعالى ـ على حقيقته

ثانيهما : سلامته من دعوى كثرة الحذف .

لكن يبعد هذا القول ـ كما ذكر ابن هشام أيضاً ـ أنه ليس في التنزيل نداء بغير " يا ". [مغني اللبيب ١ ـ ١٣].

١ـ[سورة الزمر آية رقم : ٨].

٢ـ[ينظر : مغني اللبيب ١ ـ ١٣ ، وتفسير سورة النساء ص ٩٦ ، ٩٧].

٣ـ[ينظر : مغني اللبيب ٢ – ٣٧٣] .

٤ـ[ينظر : مفتاح العلوم للسكاكي صـ ١٦١] .

٥ـ[ينظر على سبيل المثال : تفسير البيضاوي١– ٣٥/ ط / دار الفكر– بيروت ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م ، والكشاف ١ – ٢٢٤ ط – دار الفكر، وإرشاد العقل السليم ١ – ٥٨ ط – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الرابعة ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م . ومفاتيح الغيب ١ – ٤٦٦ طـ – دار الغد – الأولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م ، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل " تفسير النسفي " ١ – ٣٢ ط – دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م ، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الألوسي ١ – ٢٩٢ ط – دار الفكر – بيروت ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م].

وقيل :"يا " تدخل في كلّ نداء[1] ويذهب بعضُ العلماء إلى أنّ هذا الحرف وضع لنداء البعيد المتوسط البعد خاصة – وهذا ما رجّحه أستاذنا الجليل الأستاذ الدكتور / إبراهيم عبد الرحمن خليفة[2] وحجته في ذلك أنّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى غالباً .[3]

وإذا كان الأمر كذلك فإنّ " يا " أقل مبنى من " أيا " و " هيا " الموضوعان لنداء البعيد ففيهما إذاً زيادة في النداء عن " يا "[4].

وقد سبق إلى تلك الحجة الصبّان في حاشيته على الأشموني حيث قال :" زيادة أحرفهما عن (يا) فيهما دلالة على زيادة بُعد منادهما عن منادى (يا)"هـ[5]

ثانياً : أنّ الأصل في البُعد والقُرب أن يكونا حسّيين يقاس كل منهما بالمسافة المكانية بين شيئين ، لكن

١ـ[هو قول الأشموني على الألفية .[ينظر حاشية الصبان على الأشموني جـ ٣ – ١٩٩] . وكذلك قول المبرد ، وابن البرهان كما ذكره الخضري في حاشيته على شرح ابن عقيل للألفية جـ ٢ – ص ٧١ وكذلك ذهب التفتازاني في المطول صـ ٤٣٠ ومن المفسرين الإمام أبو حيان .[ينظر البحر المحيط ١– ٢٣١ ط دار الكتب العلمية / بيروت– الأولى ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م].

٢ـ[وذلك في كتابه : التفسير التحليلي لسورة النساء صـ ٩٧ ط أولى ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م] .

٣ـ[علق أستاذنا الدكتور / إبراهيم عبد الرحمن خليفة . في هذا الموضع في الهامش بقوله :" إنما احترزنا بذكر الغالب لأن نقص المبنى قد يدل على زيادة المعنى كفعِل من أوزان المبالغة أبلغ من فاعل اسماً للفاعل بحيث كان قولك حذِر أبلغ من حاذر مثلا .هـ[التفسير التحليلي لسورة النساء صـ ٩٨

٤ـ[التفسير التحليلي لسورة النساء صـ ٩٨].

٥ـ[حاشية الصبان على الأشموني ٣ –١٩٨].

حتى لا تنقطع بهم أسباب الأمل في نيل رحمته وقربه فيقضي عليهم اليأسُ التام من تقارب النسبة بين الخالق والمخلوق باليقين من عدم أهلية الخطاب بالكلية فيبعثهم ذلك على الإعراض عما في خطابات الشارع من هدى ونور .. والله أعلم "هـ[1]

قلت : ذكر الأستاذ الدكتور / إبراهيم عبد الرحمن خليفة المجازَ في النداء بـ (يا)في هذا الوجه وهو:

إمَّا للإشعار بتعاظم الفرق بين المنادي والمنادَى .

وإمَّا للإشعار بكون الغفلة قد أبعدت صاحبها عمن يناديه وإن كان قريباً منه في الواقع وذكرَ أنَّ المناسب في هذا الوجه هو الإتيان بـ " يا " والتي هي – كما يرى مع آخرين لمتوسط البعد – مداً للخلق في أسباب الأمل ..

هذا مع ذكره أستاذنا الجليل وأتبع ذلك بتعقيب بسيط في هذا المقام فأقول :

لا بُدّ وأنْ نُلاحظ بجانب هذا أنَّ الله ــ تعالى ــ عندما ينادي على أنبيائه ورسله أو جماعة المؤمنين وكذلك الملائكة فإنَّ في ذلك إشعاراً بعظم المنادَى أيضاً بجانب الإشعار الأكيد بعظم المنادِي ــ سبحانه وتعالى ــ ..

فعلى هذا نسأل إذا كان نداء الله على أنبيائه ورسله وجماعة المؤمنين وكذلك الملائكة يشعر بعظم ورفعة شأن المنادَى فما وجه الإتيان بـ " يا " ــ على القول بأنها لمتوسط البعد ــ دون غيرها في هذا الوجه ؟

فأقول وبالله التوفيق : إنَّ الله ــ تعالى ــ والله أعلم – لم ينادهم بنداء البعيد شديد البعد لأنهم قريبون إلى ربِّ العالمين بالطَّاعة والإنابة .

ولم ينادهم بما يدلُّ على هذا القرب ليبقى كلٌّ منهم على حذرٍ من

١ــ[التفسير التحليلي لسورة النساء صـ ١٠٢] .

ربِّ العالمين ــ سبحانه وتعالى ــ وعدمِ الأمن من مكره ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ[1] ﴾ وفي هذا إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه هؤلاء من التوسط بين درجتي الخوف والرخاء والله أعلم

أمَّا الوجه الثاني من وجهي خروج النداء من الحقيقة إلى المجاز فيذكره أستاذنا الجليل فيقول :" وأمَّا الوجه الثاني في صرف النداء عن حقيقته إلى وجهٍ آخر يليق به حسب المقام فهو : إظهار المنادِي الاهتمام بالأمر الذي ينادي من أجله ..

وذلك أنَّ العادة المضطردة قد جرت بأنه لا يحسن أن تنادي بعيداً عنك ، وبحيث تكلفه المشقة في قطع المسافة الحسيِّة الطويلة إليك إلا إذا كان ما تدعوه له أمراً مهماً جديراً أن تحتمل من أجله المشقة في قطع مثل هذه المسافة ..

فبحكم هذه العادة المضطردة المنسجمة مع منطق العقل وحكمته جرى الكثيرُ من نداءات الذكر الحكيم .. كيف لا ، ونداؤه ــ تعالى ــ على خلقه بأوامره ونواهيه يعدُّ من الأهمية بمكان إذْ غاية كل منهما إصلاح الفرد والمجتمع .

ويتجلى أيضاً في هذا الوجه حكمةُ النداء بـ " يا " إذا ما لوحظ وضعه للبعيد المتوسط البعد – فنقول : كان الأوْلى في مثل هذا الوجه أنْ يستعمل من أحرف النداء ما وضع لشديد البعد لا لمتوسطه فحسب لمناسب الاهتمام بالأمر المنادَى به قلنا : إنما أوثر ما هو لمتوسط البعد إشارة إلى أنَّ المشقةَ المتحملةَ في امتثال ما دعينا له متوسطة لا أنَّها عظيمة متناهية العظم بعيدة عن أن يطاق احتمالها حسبما كان يمكن أن يفيده ما هو موضوع لشدة البعد ..

لا يقال : قد كان يمكن استعمال حرف آخر مما وضعوا لمتوسط البعد

١ــ[سورة الأعراف آية رقم : ٩٩].

أيضاً كـ " آ " أو " أي " ليفيد المعنى المشار إليه ..!

لا يقال ذلك لأنَّ استخدام ما هو أفشى في العربية والأكثر في استعمال أهلها عند النداء أولى مما هو دونه في ذلك .

فبهذا كله يتبين أنَّ القرآن حين قصرَ الاستعمال على هذا الحرف " يا " في جميع نداءاته قد جرى على ما هو الأوفق بالحكمة ، والأجزل في البلاغة .. "هـ"[1]

ونستخلص مما سبق :

أولاً : على القول بأنَّ " يا " لنداء البعيد فإنَّ نداء القريب بها إمَّا لعلو مرتبة المنادي . وإمَّا لتنزيل غفلة السامع وسوء فهمه منزلة بعده .

وإمَّا للاعتناء بأمر المدعو له والحث عليه ، واختيارها من بين أخواتها الدالة على البعد حينئذ كـ " أيا " و " هيا " إنما هو لسهولة النطق بها وكثرتها على الألسنة حتى لَيُظن أنْ ليس للنداء أداة إلا هي .

ثانياً : على القول بأنَّ " يا " لمتوسط البعد قد يظهر للمتأمل في النداء بها حِكَمٌ وأسرارٌ يتجلى من خلالها وجهٌ من وجُوه إعجاز كتاب الله ـ تعالى ـ هذا إذا لم ننظر إلى شيوعها وسهولة النطق بها ، وإلا فتلك علة كافية لمجيء القرآن بها . فسمة القرآن الكريم هو التيسير وسلاسة التعبير كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ[2] ﴾

هذا عن سرّ اختيار " يا " في نداءات القرآن الكريم ، وبقي أنْ أشير إلى الآتي في أمر النداء بـ " يا".

أولاً : السرّ في حذف " يا " في بعض المواضع من القرآن الكريم .

كثيراً ما تحذف " يا " من نداءات القرآن ولا سيَّما في الدعاء كقوله ـ

١ـ[التفسير التحليلي لسورة النساء ص ١٠٣].

٢ـ[سورة القمر آية رقم : ١٧].

تعالى ـ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى[1] ﴾ أي : يا ربِّ أرني.

وإذا حذفت " يا " من النِّداء في القرآن فلا يقدِّر المعربون عندئذ غيرها أمّا السرّ في حذفها حينئذ فيظهر في أمرين : أولهما : أنَّ النِّداء يتشرب معنى الأمر لأنك إذا قلت : يا زيد ، فمعناه : أدعوك يا زيد ، فحذفت " يا " من نداء الرب ليزول معنى الأمر ، ويتمحض للتعظيم والإجلال .[2]

ثانيهما : أنَّ المنادي ـ ولا سيَّما إذا كان داعياً ربَّه ـ تعالى ـ يسارع إلى الاشتغال بذكر المنادَى بحيث لا يشغله عن هذا الذكر شئ .

حتَّى لو كان هذا الشيء يسيراً كحرف النداء ، فإنْ قلت : إذا تعقلنا هذا في الدعاء فكيف نتعقله في غير الدُّعاء من أمثال قوله ـ تعالى ـ حكاية عن العزيز أو عن الشاهد ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا[3] ﴾ الآية ، مما وقع فيه حذفُ حرف النداء وهو غير دعاء .

يجاب عليه بأنَّ الأمر في هذا هو بعينه ما قلناه في الدعاء ، فإنَّ المنادي ـ في نحو ما سبق من التمثيل به ـ بيّن التهالك مفرط الإقبال على المنادَى لا يحب أن يشتغل عنه بشيء ، أو قل : تمنعه المسارعة إلى ما يريد من مناداة الذي هو يوسف ـ عليه السلام ـ في هذا المثال من أن يضيع أيَّ وقت ولو كان هذا الوقت مجرد اللحظة التي يستغرقها حرف النداء لو ذكره[4]

ومن الجدير بالذكر هنا أنه على كثرة ما نودي " الرب " ـ سبحانه وتعالى ـ في القرآن الكريم لم يعثر عليه مسبوقاً بحرف النداء إلا في موضعين :

١ـ[سورة البقرة آية رقم : ٢٦٠].

٢ـ[البرهان في علوم القرآن ٣ ـ ٢١٣ للإمام الزركشي . ط/ الحلبي . تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم].

٣ـ[سورة يوسف آية رقم : ٢٩].

٤ـ[التفسير التحليلي لسورة النساء ص ١٠٧]. بتصرف

أولهما :قوله ــ تعالى ــ:﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [1]﴾

ثانيهما : قوله ــ تعالى ــ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا [2]﴾

ولعلَّ مجيء حرف النداء في الأول ليعبر عن حالة نفسية ألَمّت بالرسول ــ ﷺ ــ وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم ، فلم يزدهم ذلك إلا تمادياً في كفرهم فأطبق الهمُّ على فؤاده ــ ﷺ ــ ، وكأنما شعر بتخلي الربِّ عن نصرته ، وبعده عن أن تمتد إليه يدُ المساعدة ، فأتى بحرف النداء ، كأنما يريد أن يرفع صوته زيادة في الضراعة إلى الله ، واستجلاب رضاه "[3]

والحكمة في الموضع الثاني ظاهرة ففيها شكاية الرسول ــ ﷺ ــ قومه إلى ربِّ العالمين حيث قابلوا القرآن العظيم بالكفران والهجران مع ما فيه من مظاهر إعجازه وهداياته ، فأتى بحرف النداء ليصور مدى بث حزنه ــ ﷺ ــ إلى الله وشكواه على قومه .

كان هذا محاولة للتعرف على سرّ مجيء " يا " في القرآن الكريم دون غيرها من أدوات النداء .

أمّا النقطة الثالثة من هذا البحث فهي : معنى " أي " وحكمة ذكره في النِّداء وكذا " هاء" التنبيه وحكمتها.

أما عن " أي " وحكمة ذكره في النداء :

فلا شك أنَّ مجيء " أي " في النداء بـ " يا " يزيده تأكيداً لما يقتضيه السياق اللغوي أو سياق المقام [4]

١ــ[سورة الزخرف آية رقم : ٨٨ – ٨٩]

٢ــ[سورة الفرقان آية رقم : ٣٠]

٣ــ[معاني التراكيب ص ١١٦٧ ، ١١٧ د/ عبد الفتاح لاشين . ط / دار الطباعة المحمدية . بدون].

٤ــ[السياق اللغوي هو : الكلمات والجمل السابقة واللاحقة للكلمة ، والنصّ الذي ترد فيه .. وبمعنى آخر : كلّ ما يصاحب اللفظ من

ف ــ " أي " عنصر لغوي ذو تأثير في اللفت والإيقاظ ..

و " أيّ " هذه – كما في كتب النحو[1]–اسم يأتي على خمسة أوجه:

١ – شرطاً نحو قوله ــ تعالى ــ: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ [2]﴾

٢ – استفهاماً نحو قوله ــ تعالى ــ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ [3]﴾

٣ – موصولاً نحو قوله ــ تعالى ــ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا [4]﴾ التقدير : لنترعن الذي هو أشدّ .

٤ – أن تكون دالة على معنى الكمال ، فتقع صفة للنكرة نحو " زيدٌ رجلٌ أيُّ رَجُلٍ " أي كامل في صفات الرجال ، وتقع حالاً للمعرفة كـ" مررت بعبد الله أيَّ رجل .

٥ – أن تكون وُصْلَةً إلى نداء ما فيه أل ، نحو " يا أيُّها الرجُل ".

وهذا هو الوجه الأخير الذي يهمنا من استخدامات " أي " .

ففوق ما سبق ذكره من أنَّ مجيئها في النداء – من الناحية البلاغية – للتأكيد .. فإنَّها من الناحية اللغوية لا يتوصل إلى نداء ما فيه " أل " إلا بها يقول الإمام الزمخشري ــ رحمه الله ــ: و" أيّ " وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام كما أنَّ " ذو " و " الذي " وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجمل ، وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه ، فلا بُدَّ أن يردفه اسم جنس أو ما يجري

ألفاظ تساعد على توضيح المعنى ، سواء أتقدمت عليه أم تأخرت عنه .. وسياق المقام هو : كل ما يحيط باللفظ من ظروف تتصل بالمكان أو المتكلم أو المخاطب في أثناء النطق ، فتعطي اللفظ دلالته ، وتوجهه باتجاه معين . [التأويل اللغوي في القرآن الكريم " دراسة دلالية " ص:٤٨ ، ٤٩ د / حسين حامد الصالح – دار ابن حزم – صنعاء بدون].

١ــ[ينظر مغني اللبيب ١ – ٧٧ ، ٧٨]

٢ــ[سورة الإسراء آية رقم ١١٠].

٣ــ[سورة المرسلات آية رقم ٥٠].

٤ــ[سورة مريم آية رقم ٦٩].

مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء فالذي يعمل فيه حرف النداء هو " أيْ " والاسم التابع له صفته كقولك : يا زيد الظريف . إلا أنّ " أيّاً " لا يستقل بنفسه استقلال زيد ، فلم ينفك من الصفة "هـ"[1]

ولمّا كان المقصود بالنداء في الحقيقة نعتها المذكور بعدها والمحلى بـ(أل) دائماً اغتفر فيه بعض ما لا يغتفر في غيره من النعوت فجاز فيه أنْ يكون جامداً مع أنّ شرط النعت عند الجمهور من النحويين وأهل اللغة هو الاشتقاق أو التأويل به.[2]

أمّا عن تعليل مجيء " أي " مع " يا " للتوصل لنداء ما فيه " أل " فـ" لأنّ " يا " تعد بمثابة علامة التعريف ، ومباشرتها حينئذٍ لما فيه " أل " متعذر .. لأنهما كمثلين وهما لا يجتمعان إلا فيما شذّ من نحو :

فَلاَ واللهِ لا يُلْفَى لَمَا بِي * وَلاَ لِلِمَا بِهِمْ أَبَداً دَوَاءُ ".[3]

صاحب والموصولة نحو مررت برجل ذي مال أي صاحب مال وبزيد ذو قام أي القائم والمنسوب نحو مررت برجل قرشي أي منتسب إلى قريش .

وقد ذهب جمع من المحققين كابن الحاجب إلى أنه لا يشترط في النعت كونه مشتقاً بل الضابط دلالته على معنى في متبوعة كالرجل الدال على الرجولية .

وعلى هذا فيجوز في اسم الجنس المحلى بـ(أل) بعد اسم الإشارة كونه نعتاً ككونه بدلاً أو بياناً نحو هذا الرجل قائم أما على الأول فلا يجوز كونه نعتاً إلا المشتق كهذا القائم رجل . [حاشية الخضري على ابن عقيل ج ٢ – ٥٢].

١ــ[الكشاف ١ – ٢٢٥] .

٢ــ[يقول ابن مالك في ألفيته : وانعت بمشتق كصعب وذرب *** وشبهه كذا وذي والمنتسب

والمعنى : أنه لا ينعت إلا بمشتق لفظاً أو تأويلاً والمراد بالمشتق هنا ما أخذ من المصدر للدلالة على معنى وصاحبه وهو اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة باسم الفاعل وأفعل التفضيل والمؤول بالمشتق كأسماء الإشارة نحو مررت بزيد هذا أي المشار إليه وكذا ذو بمعنى

٣ــ[روح المعاني١ – ٢٩٢والبيت لـ/ مسلم بن معبد الوالبي . والشاهد فيه (للما) والشذوذ هنا في دخول (أل) على (ما)

لكن اغتفر هذا في نداء لفظ الجلالة وجاز أنْ تجتمع " يا " مع " أل " دون " أيْ " وتعليل ذلك :

أولاً :- أنّ " أل " في لفظ الجلالة صارت من بنية الكلمة .

ثانياً :- أنّ لفظ الجلالة من القداسة ما يوجب صيانته عن أيّ تغيير أو تحريف بنقص أو زيادة .

ثالثاً :- لم يحتج إلى " أي " في نداء لفظ الجلالة – طلباً لخفة هذا اللفظ على الألسنة ، لكثرة ترديدها له لشدة الحاجة إلى ذكره في الدعاء وغيره .

رابعاً :- أنّ " أيْ " نكرة تحتاج بعدها اسم جنس ، أو ما يجرى مجراه يوضحه ويزيل إبهامه ، ولفظ الجلالة ليس من هذا القبيل ، فلا يتناسب معه أن يسبقه " أي ".

خامساً :- أن الإبهام يشبه العدم بالنسبة للمخصوص المقصود بالنداء بعد " أيْ " لكن الله ــ تعالى ــ لم يسبقه عدم ، فلا يصلح أن يسبق ذكره أيضاً عدم ولا شبه عدم.

سادساً :- أنّ في رفع " أيْ " من بين حرف النداء " يا " وبين لفظ الجلالة أي " المنادَى " إشارة إلى قرب الله ممن ناداه ، وأنه ينبغي رفع كل الوسطاء بين العبد وبين ربه ، على حدّ قول الله ــ تعالى ــ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ[1]﴾ ولم يقل : فقل: إني قريب .[2]

الموصولة حيث تباشرت علامتا التعريف. ينظر: مغني اللبيب١ــ ١٨١، وخزانة الأدب ٢ ــ ٢٧٠ لـ / عبد القادر عمر البغدادي / ط / دار الكتب العلمية بيروت ، وكتاب الإنصاف في مسائل الخلاف صـ: ٥٧١ لـ/ عبد الرحمن بن محمد الأنباري/ ط/ دار الفكر].

١ــ[سورة البقرة آية رقم : ١٨٦].

٢ــ[ينظر : التفسير التحليلي لسورة النساء ص ١٠٨ ، وتفسير سورة الممتحنة " دراسة تحليلية " د/ عبد البديع أبو هاشم محمد ص ٥٢ ، ٥٣ / ط/ أولى ١٤١٨ هـ ــ ١٩٩٧ م بدون ذكر اسم المطبعة].

هذا عن " أي " فماذا عن " ها " التنبيه وحكمتها ؟

قبل الإجابة على هذا أشير في البداية أنه عندما نقول " ها " التنبيه فهذا أحد وجوه ثلاثة ذكرت في استخدامها ..

وثاني هذه الوجوه : أنْ تكون اسماً لفعل وهو " خُذ " ويجوز مَدُّ ألفها ، ويستعملان " أي ها وهاء " بكاف الخطاب وبدونها ، ويجوز في الممدودة أن يستغني عن الكاف بتصريف همزتها تصاريف الكاف ؛ فيقال " هَاءَ " للمذكر بالفتح و " هَاءِ " للمؤنث بالكسر ، و " هاؤُمَا " و " هاؤُنَّ " و " هاؤُمْ " ومنه ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ[1]﴾

وثالث هذه الوجوه : أن تكون ضميراً للمؤنث ، فتستعمل مجرورة الموضع ومنصوبته نحو ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا[2]﴾

ونعود إلى استخدام " ها " للتنبيه لنقول : إنها تكون للتنبيه على أربعة أوجه ذكرها ابن هشام في المغني وهي :

أولاً : الإشارة غير المختصة بالبعيد نحو " هذا " بخلاف (ثَمّ) و (هَنَّا) بالتشديد و (هُنالك).

ثانياً : ضمير الرفع المخبر عنه باسم إشارة نحو ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ[3]﴾

ثالثاً : اسم الله ــ تعالى ــ في القَسم عند حذف الحرف ، يقال " هَا الله " بقطع الهمزة ووصلها ..

رابعاً : نعت (أيْ) في النداء نحو " يا أيُّها الرجل "[4]

و الذي يهمنا من أمر " ها " التنبيه هو هذا الوجه الأخير فأقول والله الموفق : ذكر العلماء لـ " ها "

١ــ[سورة الحاقة آية رقم : ١٩].

٢ــ[سورة الشمس آية رقم : ٨].

٣ــ[سورة آل عمران من الآية رقم : ١١٩].

٤ــ[مغني اللبيب ٢ – ٣٤٩]. باختصار

حينما تدخل على " أيُ " في النداء فائدتين :

فائدة نحوية وفائدة بلاغية أما الفائدة النحوية فإنَّ " ها " التنبيه عندما تدخل على " أي " تكون عوضاً مما يستحقه (أيْ) من الإضافة ، وفي ذلك يقول الإمام القرطبي – رحمه الله –:" وجاءوا بها عوضاً عن ياء أخرى ، وإنّما لم يأتوا بياء لئلا ينقطع الكلام ؛ فجاءوا بها حتى يبقى الكلام متصلاً ، قال سيبويه : كأنك كررت " يا " مرتين وصار الاسم بينهما ؛ كما قالوا : ها هو ذا "هـ.[1]

ومعنى ذلك أنّ أصل الكلام (يا رجل) ولما كان حرف النداء لا يصل بنفسه إلى نداء ما فيه " أل " زادوا لفظ (أيْ) للحكَم التي سبق ذكرها فصار التركيب (يا أي الرجل)

وهكذا وقع الفصلُ بين حرف النداء والمنادى مما أحوج إلى تكرار حرف النداء ملصقاً بالمنادى ليكون (يا أي يا الرجل) ولما في هذا التركيب من الإشكال الأول ذاته ــ أي عدم مباشرة حرف النداء لما فيه (أل) ولما فيه من التكرار ــ جاءوا بـ (ها) التنبيه عوضاً عن حرف النداء الثاني فصار التركيب – كما ترى – (يا أيها الرجل).

وأما الفائدة البلاغية لدخول " ها " التنبيه على " أي " فهي معاضدة حرف النداء و مكاتفته بتأكيد معناه..

ومن الممكن بيان حكمة هذا التنبيه في " ها " الدال على معاضدة ومكاتفة حرف النداء لتأكيد معناه فيما يلي :

أولاً : الإرشاد إلى أهمية الأمر المنبّه إليه ، ضرورة أنه لا يحسن التنبيه من العاقل – فضلاً عن العليم ــ تعالى ــ إلاّ إلى ما هو مهم يخشى أن تقع الغفلة عن أهميته لولا التنبيه إليه .

١ــ[تفسير القرطبي ١ – ١٩٤ دار الريان للتراث . وينظر : الكشاف ١ – ٤٤ ، وإرشاد العقل السليم (تفسير أبي السعود)١ – ٢٥٨ ، وروح المعاني ١ – ١٨٢].

ثانياً : تجلية رحمة الله الواسعة ونعمته السابغة على عباده بتنبيههم إلى ما يهمهم وبحيث لم يكلهم إلى أنفسهم في اكتشاف ما فيه من الأهمية ولا وكلهم إلى الغفلة التي يمكن أن تعتريهم فتحول دون تنبههم إليه .

ثالثاً : قطع أعذار الخلق وإقامة الحجة عليهم بهذا التنبيه ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة .. فإنه ـ تعالى ـ بعد إذ نبههم إلى ما يهمهم لا يبقى لهم عذر في ادعاء أنهم لم يعرفوا أهميته وأنهم لو نبهوا إليها لعرفوها .

تلك وجوه تضع أيدينا على حكمة دخول " ها " التنبيه على النداء بـ " يا أي " ليصير التركيب " يا أيُّها .." والذي كثر النداء به في كتاب الله ـ تعالى ـ ما لم يكثر في غيره وذلك ـ كما يقول الإمام الزمخشري :"ـ لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة ، لأنّ كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه ، وعظاته وزواجره ووعده ووعيده ، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم .

وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون ، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ "هـ"[1].

ويختصر الإمام الألوسي هذه المعاني الكامنة في النداء بـ " يا أيُّها " فيقول : وكثر النداء في الكتاب المجيد على هذه الطريقة لما فيها التأكيد الذي كثيراً ما يقتضيه المقام بتكرر الذكر والإيضاح بعد الإبهام ، والتأكيد بحرف التنبيه واجتماع التعريفين "هـ"[2].

كانت تلك هي النقطة الثالثة من هذا البحث ذكرت فيها معنى " أيْ " وحكمة ذكره في النداء وكذا " ها " التنبيه وحكمتها .

١ـ[الكشاف ١ ـ ٢٢٦].

٢ـ[روح المعاني ١ ـ ٢٩٢].

وبهذا يتم الكلام عن هذا التركيب الذي كثر النداء به في كتاب الله ـ تعالى ـ أعني " يا أيُّها ".

وقبل استعراض النداءات الإلهية في سورة التحريم أوقف القارئ الكريم على أنواع النداء في القرآن العظيم ، حتى تتم الفائدة في معرفة أهمية وأسرار النداء في كتاب الله ـ تعالى ـ ؛ وتلك هي النقطة التالية من هذا البحث .

رابعاً : أنواع النداء في القرآن الكريم ومغزاه :

لا شك أنَّ النِّداء ـ وكما سبق ذكره ـ يعدُّ في كتاب الله ـ تعالى ـ أحد الأساليب البلاغية ووجهاً من الوجوه البيانية للقرآن الكريم التي تدلّ على العناية الكاملة والاهتمام العظيم بالمطلوب ، وبالمنادى ، وهذا أمر معروف مشهور..

وإذا ما تأملنا في كتاب الله ـ تعالى ـ يظهر لنا نوعان من نداء الله الموجه إلى خلقه وهذان النوعان هما : نداء تكويني ، ونداء تكليفي .

أمَّا النداء التكويني : فهو نداء الله ـ تعالى ـ لغير العقلاء مما خلق ومثاله : قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي [1] ﴾

وقوله ـ تعالى ـ ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ [2] ﴾

وقوله ـ تعالى ـ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ [3] ﴾

وفائدة النداء في هذه الآيات وفي غيرها من مثيلاتها : تصوير مطاوعة الكائنات لخالقها ، وخضوعها لسنته ، كما يخضع المنادى حين ينادَى ممَّن فوقه .. [4]

١ـ[سورة هود من الآية رقم : ٤٤].

٢ـ[سورة الأنبياء آية رقم : ٦٩].

٣ـ[سورة سبأ آية رقم : ١٠].

٤ـ[فالنداء في الآيات الكريمة على سبيل الاستعارة ، وعلى هذا جمهور الحذاق من العلماء ـ كما ذكر أبو حيان في تفسيره ـ ،

وأمَّا النداء التكليفي فهو : نداء الله ــ تعالى ــ الموجه إلى العقلاء ، وهو إمَّا أنْ يتضمن أمراً يطلب فعلاً ، وإما يتضمن نهياً يطلب تركاً .

ولهذا النداء التكليفي أنواع يساعدنا ذكرها على بيان ما قصدنا إليه من عنوان هذا البحث " نداء الله الكريم في سورة التحريم "

وأوّل هذه الأنواع من النداء التكليفي :

نداء الله الناس جميعاً : إمَّا بالوصف العام للإنسانية وإمَّا بوصف البنوة للأب الأوَّل سيدنا آدم ــ عليه السلام ــ .

أما **الأوَّل** : فيكثر عندما يتعلق النداء بالأصول العامة للدين ، من الإيمان بالله سبحانه وتعالى ــ ، والوحي والرسالة ، واليوم الآخر ، وما يتعلق بذلك .

قال ــ تعالى ــ :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [1] ﴾

وقال ــ تعالى ــ :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ .. [2] ﴾ الآية .

وقال ــ تعالى ــ :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ .. [3] ﴾ الآية.

وأمَّا الثاني : فيكثر عندما يتعلق النداء بالنصيحة والعظة والتحذير والمنَّة ..

كقوله ــ تعالى ــ :﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ .. [4] ﴾ الآية .

وكقوله ــ تعالى ــ :﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ الآية.

١ــ[سورة البقرة آية رقم : ٢١].
٢ــ[سورة النساء آية رقم : ١٧٠].
٣ــ[سورة الحج آية رقم : ٥].
٤ــ[سورة الأعراف آية رقم : ٢٧].

وقيل إنَّ الله أحدث فيهما إدراكاً وفهماً لمعاني الخطاب .[ينظر : البحر المحيط ٥ ــ ٢٢٩].

النوع **الثاني** من النداء التكليفي:

نداء الشعوب : وليس في القرآن نداء لشعب من الشعوب إلا لبني إسرائيل ، وذاك في أكثر من موضع من مثل قوله ــ تعالى ــ :﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ [1] ﴾

ولعلَّ السرَّ في اختصاصهم بالنداء دون نداء شعوب الأرض فلكثرة ما عالج الله ــ سبحانه وتعالى ــ به هذا الشعب من النعماء والضراء ، ثم لم تنفع معهم تلك المعالجة قديماً وحديثاً ، وكان لله ــ سبحانه وتعالى ــ عليهم فضل عظيم في شخص أبيهم (إسرائيل) ، يجب عليهم أن يذكروه وأنْ يقدروه ، فيتحولوا عن موقف المكابرة والعناد إلى موقف الاستجابة والطاعة .

النوع **الثالث** : نداء الطوائف:

وهذا في القرآن الكريم على نوعين :

أحدهما : نداء طائفة اليهود والنصارى بوصف أهل الكتاب إما تبكيتاً لهم على ما كانوا يرتكبون من أفانين التضليل وأنواع التشكيك التي كانوا يحاربون بها الدعوة المحمدية ، قال ــ تعالى ــ :﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ [2] ﴾

وإمَّا أن يناديهم الله بهذا الوصف : ترغيباً وإغراءً لهم ، لتلبية الحق الذي يدعون إليه والذي لم يكن بالأمر الجديد عليهم :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [3] ﴾

١ــ[سورة الأعراف آية رقم : ٣١].
٢ــ[سورة البقرة آية رقم : ٤٠].
٣ــ[سورة آل عمران آية رقم : ٧١].
٤ــ[سورة آل عمران آية رقم : ٦٤].

النوع الآخر من نداء الطوائف: نداء طائفة الذين آمنوا بسيدنا محمد – ﷺ – وبكلّ ما يجب الإيمان به – نداء هذه الطائفة بوصف المؤمنين إذ إنهم – وبحكم هذا الوصف – أقدر على الاستجابة وامتثال ما طلب منهم وكلفوا به . وتنبيهاً في نفس الوقت إلى رفعة شأنهم وامتداح أمرهم عند ربهم ونداء هذه الطائفة بوصف الإيمان كثير جداً ، وله في سورتنا محل البحث موضعان هما :

قوله – تعالى – :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ [1] ﴾

وقوله – تعالى – :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. [2] ﴾ الآية .

وفي غير هذين الموضعين من سورة التحريم ما يقرب من ٨٧ نداء بهذه الصيغة في باقي القرآن الكريم تدور كلها حول : امتثال الأحكام والعمل بمقتضاها ، وكذلك الحث على الأخلاق والتحلي بها .

النوع **الرابع** من أنواع النداء التكليفي : نداء الجماعة المحدودة العدد وهذا في القرآن الكريم لأزواج رسول الله – ﷺ – تعظيماً لمقامهنّ وتنبيهاً على أنهنّ قدوة لغيرهن .. وأنهنّ وبحكم ذلك تكثر المسئولية عليهن ويعظم الأجر والثواب لهن إن اتقين وأحسنَ كما يضاعف لهن العذاب إن أتين ما أوجب الله العقوبة على فعله .. قال – تعالى – :﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا [3] ﴾

١ــ[سورة التحريم آية رقم : ٦].

٢ــ[سورة التحريم آية رقم : ٨].

٣ــ[سورة الأحزاب آية رقم : ٣٠].

وقال – تعالى – :﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا [1] ﴾

النوع **الخامس** من النداء التكليفي : نداء الأشخاص .

وهو إمَّا نداء بالاسم أو بالصفة أو بحالة صار إليها لمناسبة خاصة .

أمَّا نداء الأشخاص فهو في القرآن الكريم من الله – تعالى – لبعض أنبيائه قبل زمن النبي – ﷺ –

ولكن لماذا ناداهم الله – تعالى – بأسمائهم ؟

يجيب على ذلك الشيخ / محمود شلتوت بقوله :" ناداهم بأسمائهم استنهاضاً لهممهم كقوله – تعالى –: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا [2] ﴾

أو تنبيهاً إلى خطرِ ما كُلّفوا به واصطفوا لأجله :﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ [3] ﴾

أو تهدئة لروعهم وتسكيناً لأفئدتهم :﴿ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ [4] ﴾ "هـ [5]

قلت : وقد تظهر المفارقة أكثر في هذا النوع من النِّداء – أي نداء الاسم – عندما ننظر في النوع الثاني من نداء الأشخاص وهو النداء بالصفة والمراد بها هنا " صفة النبوة " وهذا النِّداء في كتاب الله – تعالى – قد خصَّ به خاتم الأنبياء والمرسلين محمد – ﷺ – فما ناداه ربُّه في كتابه إلا

١ــ[سورة الأحزاب آية رقم :٣٢].

٢ــ[سورة مريم آية رقم : ١٢].

٣ــ[سورة ص آية رقم : ٢٦].

٤ــ[سورة القصص آية رقم : ٣١].

٥ــ[تفسير القرآن الكريم ص ٩٥ للإمام الأكبر الشيخ / محمود شلتوت / ط / دار الشروق ٢٣ ط ١٢ ٢٠٠٤ م – ١٤٢٤هـ]. بتصرف يسير

بـ " يا أيُها النبيُّ " أو " يا أيُها الرَّسُولُ ".

وعلى ذلك نقول : إنَّ المعتاد في أمر نداء الأشخاص هو النِّداء عليهم بأسمائهم مع ما في ذلك من الإقبال عليهم ، والتلطف بهم تهيئة لاستقبال ما يرد إليهم من ربهم من أمرٍ أو نهيٍ فإذا نادى الله على واحد بصفته فهذا ما يحتاج إلى زيادة نظر وتأمل ..

والسؤال على ذلك : لماذا نادى الله رسوله – ﷺ – بصفة النبوة دون اسمه – ﷺ – كسائر الأنبياء والمرسلين ؟

يقول الإمام الزمخشري – رحمه الله –:" جعل نداءه بالنبيِّ والرَّسُول في قوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ[1] ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ[2] ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ[3] ﴾ وترك نداءه باسمه كما قالَ : يا آدم يا موسى يا عيسى يا داود .. كرامة له وتشريفاً وربأ بمحله وتنويها بفضله .." هـ[4].

وعبارة الإمام الألوسي في ذلك :" ناداه – جلَّ وعلا – بوصفه – عليه الصلاة والسلام – دون اسمه تعظيماً له وتفخيماً "هـ[5].

وقول البعض : إنَّه ربَّما يكون نداء سائر الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – في كتبهم أيضاً على نحو منه ، وحكي في القرآن بأسمائهم لئلا يلتبس الأمر على السامع هل المذكور النبي – ﷺ – محمد – ﷺ – أم غيره من الأنبياء السابقين .[6]

قلت : هذا تعليل ضعيف إذ كان يمكن دفع هذا الالتباس بأن يضاف بعد ذكر الصفة اسم الرسول المنادى

١–[سورة الأحزاب آية رقم : ١].

٢–[سورة التحريم آية رقم : ١].

٣–[سورة المائدة آية رقم : ٦٧].

٤–[الكشاف ٣ – ٢٤٨] .

٥–[روح المعاني ١٢ – ٢١٧] .

٦–[ينظر : روح المعاني ١٢ – ٢١٧ ، وفتح الخبير في أدوات التفسير ج ٢ – ص ١٦٦ ، ١٦٧ للأستاذ الدكتور / سيد مرسي إبراهيم – ط / أولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م].

حقيقة فيقال مثلاً : يا أيُها النبي إبراهيم يا أيُها النبي موسى يا أيُها النبي محمد .. الخ

فالأوْلى في تعليل ندائه – ﷺ – بالصفة أنْ يكون ذلك تعظيماً وتشريفاً وتكريماً له – ﷺ – تحقيقاً لمعنى الرفعة في قوله – تعالى – ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ[1] ﴾

وكذلك الأفضلية والسيادة كما نوَّه بذلك – ﷺ – على سبيل الشكر:

" أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ "[2]

وفي رواية " أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[3] ... "[4]

هذا وقد نودي – ﷺ – بوصف النبوة في موضعين من سورة التحريم – موضع البحث – وهما :

١– قوله – تعالى – :﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[5] ﴾

٢– وقوله – تعالى – :﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ[6] ﴾ الآية

ذلك اليوم فلا يبقى من ذلك شئ وتكون السيادة التامة في مواطن القيامة وشدائدها له – ﷺ – بفضل من الله عليه وتمكين له – ﷺ – وتشريف له . وبتسليم وإقرار بذلك من إخوانه النبيين والمرسلين ، والملائكة المقربين .[السنن الزكية في الفضائل النبوية ص ٥٨ د / سعد جاويش / ط / دار عطوة للطباعة ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م].

٤–[صحيح البخاري كتاب التفسير باب { ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا } رقم : ٤٣٤٣].

٥–[سورة التحريم آية رقم ١] .

٦–[سورة التحريم آية رقم : ٩].

وفي أحد عشر موضعاً في غير سورة التحريم . منها : ثلاثة في سورة الأنفال وهي :

١ – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[١] ﴾ الآية

٢ – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ[٢] ﴾ الآية

٣ – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[٣] ﴾

وموضع واحد في سورة التوبة في قوله – تعالى – : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ[٤] ﴾ الآية

ومواضع خمسة في سورة الأحزاب :

١ – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا[٥] ﴾

٢ – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا[٦] ﴾

٣ – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا[٧] ﴾

٤ – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا[٨] ﴾

٥ – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن

---

١ – [سورة الأنفال آية رقم : ٦٤].
٢ – [سورة الأنفال آية رقم : ٦٥].
٣ – [سورة الأنفال آية رقم : ٧٠].
٤ – [سورة التوبة آية رقم : ٧٣].
٥ – [سورة الأحزاب آية رقم : ١].
٦ – [سورة الأحزاب آية رقم : ٢٨].
٧ – [سورة الأحزاب آية رقم : ٤٥].
٨ – [سورة الأحزاب آية رقم : ٥٠].

جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا[١] ﴾

وموضع واحد في سورة الممتحنة في قوله – تعالى – : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[٢] ﴾

وموضع واحد في سورة الطلاق في قوله – تعالى – : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا[٣] ﴾

ونودي – ﷺ – بوصف الرسالة في موضعين فقط وكلاهما في سورة المائدة : في قوله – تعالى – :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ[٤] ﴾

وقوله – تعالى – : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ[٥] ﴾

وكلاهما من سورة المائدة .

---

١ – [سورة الأحزاب آية رقم : ٥٩].
٢ – [سورة الممتحنة آية رقم : ١٢].
٣ – [سورة الطلاق آية رقم : ١].
٤ – [سورة المائدة آية رقم : ٤١].
٥ – [سورة المائدة آية رقم : ٦٧].

وسأبين ــ بعون الله وتوفيقه ــ الفرق بين ندائه ــ ﷺ ــ بوصف النبوة وبين ندائه بوصف الرِّسالة عند استعراض النداءات في سورة التحريم .

هذا عن نداء الشخص بالاسم والصفة أمَّا عن ندائه بحالة صار إليها لمناسبة خاصة فقد جاء ذلك أيضاً في كتاب الله ــ تعالى ــ لرسول الله ــ ﷺ ــ دون غيره ..

فقد نادى اللهُ سيدَنا محمداً ــ ﷺ ــ بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ [1] وبقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ [2] وفي الخطاب بهذين الوصفين ــ كما يقول البعض ــ تأنيس له وملاطفة على عادة العرب في اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التي هو عليها ، كقوله ــ ﷺ ــ لعليٍّ ــ رضي الله عنه ــ حين رآه وهو نائم قد لصق بجنبه التراب : " قم يا أبا تراب " [3]

وقد يزاد على ذلك أنَّ النداء بهذين الوصفين لرسول الله ــ ﷺ ــ قد وقعا في أوائل ما نزل من كتاب الله ــ تعالى ــ تقوية لهمته ــ ﷺ ــ وإشعاره بقرب الله منه وعنايته به على كافة أحواله وشئونه ــ ﷺ ــ مما له الأثر البالغ في تحمل مشاق الدعوة ، وطرح أي دافع يؤدي إلى التكاسل عنها .. [4]

تلك هي أنواع النداء في كتاب الله ــ تعالى ــ ومغزاه تعدُّ مع ما سبق

١ــ[سورة المزمل آية رقم : ١].

٢ــ[سورة المدثر آية رقم : ١].

٣ــ[ينظر فتح الخبير في أدوات التفسير ص ١٥٩ وتفسير القرآن الكريم . للشيخ محمود شلتوت ص ٩٥ ، ٩٦) والحديث أخرجه : البخاري في صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب مناقب علي ابن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه ٣ ــ ص ١٣٥٨ / ط / دار ابن كثير ، اليمامة ــ بيروت الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ ــ ١٩٨٧ . تحقيق : د. مصطفى ديب البغا . وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٤ــ ١٨٧٤ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي].

٤ــ[ينظر : البحر المحيط ٨/ ٣٥٢ ، ٣٦٢].

ذكره من نقاط في هذا البحث ضرورة من ضروراته وتمهيداً ييسر استعراض النداءات الإلهية في سورة التحريم وهذا ما سأتناوله ــ بعون الله وتوفيقه ــ بعد إلقاء الضوء على السورة الكريمة من حيث التسمية وسرّها ، ومكان نزول السورة ، وعدد آيها وعرض السورة بوجه عام ومناسبتها لما قبلها .

وهذه هي النقطة الخامسة من هذا البحث .

أمَّا عن تسمية السورة : فلها أكثر من اسم ــ كما ذكر الطاهر بن عاشور ــ فهي سورة (يا أيها النبي لم تحرم ما أحلّ الله لك) ، وسورة (التحريم) وذلك في كتب السنة وكتب التفسير وسورة (اللّمَ تحرم) بتشديد اللاّم مكسورة وبفتح الميم وضم التاء محققة وتشديد الراء مكسورة بعدها ميم على حكاية جملة (لم تحرم) وجعلها بمنزلة الاسم وإدخال لام تعريف العهد على ذلك اللفظ وإدغام اللامين .

وتسمى كذلك سورة (المتحرم) وسورة (النبي ــ ﷺ ــ) ، وقال الألوسي : إنَّ ابن الزبير سمَّاها " سورة النساء " لكنَّ الطاهر بن عاشور يقول: " قلت : ولم أقف عليه ولم يذكر صاحب الإتقان هذين في أسمائها." هـ [1]

تلك أسماء السورة الكريمة وليس فيها شئ مرفوع إلى رسول الله ــ ﷺ ــ والموقوف منها تسميتها بـ " سورة التحريم "ــ كما هو ثابت في أثر ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ والذي سيأتي ذكره عند بيان مكان نزول السورة الكريمة .

وأمّا ما ورد مرفوعاً " من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحاً " فهو حديث موضوع [2].

١ــ[التحرير والتنوير ١٣ ــ ٣٤٣ ط / دار سحنون للنشر والتوزيع (تونس) وينظر روح المعاني ١٥ ــ ٢١٧ ، وتفسير القرطبي ١٠ ــ ٦٦٥٦ ، والإتقان ١ ــ ١٥٩ النوع السابع عشر "].

٢ــ[نبَّه العلامة ابنُ حجر في تخريجه لأحاديث الكشاف للزمخشري إلى وضعه . ينظر : الكافي

وإذا كان لنا أن نبحث عن سرِّ تسمية السورة بأحد هذه الأسماء فليكن ذلك من خلالِ تلك التسمية التي اشتهرت بها السورة الكريمة في كتب التفسير وكتب الحديث أعني تسميتها بـ " التحريم ".

وللوقوف على سرِّ ذلك أذكر للقارىء الكريم ما قاله الإمام الزركشي في كيفية الوقوف على وجه اختصاص كل سورة بما سميت به . حيث قال :" لا شك أنَّ العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذَ أسمائها من نادرٍ أو مستغرَب يكون في الشيء من خَلْق أو صفة تخصُّه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمَّى . ويسمُّون الجملةَ من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها ، وعلى ذلك جرت أسماءُ سور الكتاب العزيز كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها ، وعجيب الحكمة فيها . وسميت سورة النساء ، بهذا الاسم لما تردَّد فيها من كثير من أحكام النساء ، وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها ؛ إلاَّ أنَّ التفصيل الوارد في قوله ـ تعالى ـ :(وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا) إلى قوله (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ[1])

الكشاف لابن حجر على هامش تفسير الكشاف للزمخشري (رقم ١٦٤٢) م ٦ ـ ص ١٦٨ ، م ١ ـ ص ٢٨٥ (رقم ٣٤٦) / ط / مكتبة العبيكان / الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود . قلت :" هذا من جملة حديث أبي بن كعب المشهور في فضائل السور " سورة سورة " يذكره الواحدي والثعالبي في أوائل السور والزمخشري في آخرها ، وهو حديث موضوع مكذوب على رسول الله ـ ﷺ ـ .. وفي ذلك قال ابن الصلاح ـ رحمه الله ـ: قد وُضعت أحاديث طويلة يشهد بوضعها ركاكة ألفاظها ومعانيها ... إلى أن قال :" وهكذا حال الحديث الطويل الذي يروى عن أبي بن كعب عن النبي ـ ﷺ ـ في فضل القرآن سورة فسورة . بحث باحثٌ عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه وأنَّ أثر الوضع لبين عليه .

ولقد خطأ الواحدي المفسر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم . والله أعلم . [مقدمة ابن الصلاح ص ٤٧ مكتبة المتنبي].

١ـ[سورة الأنعام من الآية ١٤٢ ـ ١٤٤].

لم يرد في غيرها ؛ كما ورد ذكر النساء في سُوَر إلاَّ أنَّ ما تكرر وبُسط من أحكامهنَّ لم يرد في غير سورة النساء . وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة في غيرها فسميت بما يخصها "هـ"[1].

ويؤكد الشيخ شلتوت ما ذهب إليه الإمامُ الزركشي فيقول :" ونحن إذا تتبعنا أسماءَ السور في القرآن الكريم نجدها تشير إلى أهمِّ وأغرب ما اشتملت عليه السور ، فسورة البقرة مثلاً سميت بهذا الاسم لقصة عجيبة الشأن تتعلق ببقرة أُمِر بنو إسرائيل بذبحها إذ كان سبيلاً لمعرفة الجاني في حادثة قَتْلٍ لم يعرف مرتكبها "هـ"[2].

وبناءً على هذا نجد السورةَ الكريمة (سورة التحريم) حيث سميت بأهمِّ ما تضمنته وتناولته ألا وهو ما كان من رسول الله ـ ﷺ ـ من تحريم العسل أو مارية وامتناعه عن أيهما كما ستأتي الإشارة إليه ..

ولا شك أنَّ أمر هذا التحريم الذي حصل من رسول الله ـ ﷺ ـ ومراجعة الله تعالى لنبيه فيه .. يعدُّ من الأمور المهمة التي تستحق أنْ تعالج من قبيل الوحي الإلهي بل ويعد ذلك عنواناً للسورة الكريمة ..

أقول ذلك زِدْاً على بعض المستشرقين الذي استنكر على الوحي الإلهي أن يُعنى بتراع ثار في بيت محمد ، وأن يشغل الناس به ...

إلى آخر تلك الشبهات التي لا يتورع أعداء الله عن إطلاقها بين الحين والآخر . لكن أليست القصة أولى بالذكر مما أورده الكتاب المقدس عن زنى لوطٍ بابنتيه بعدما أسكرتاه وأفقدتاه الوعي ؟!

إنَّ المستشرقين يلمحون القشة في عيون الآخرين ولا يحسون الخشبة في عيونهم . ولله في خلقه شئون .[3]

١ـ[البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١].

٢ـ[تفسير القرآن الكريم للشيخ شلتوت . ص ٩٠].

٣ـ[ينظر : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم / الشيخ محمد الغزالي ص ٤٧٠ ط ٤ دار الشروق ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م].

كان هذا عن اسم السورة الكريمة وسرِّ التسمية .

أمَّا عن مكان نزول سورة التحريم وعدد آيها : فهي مدنية ؛ قال ابن عطية : بإجماع أهل العلم بلا خلاف "هـ[1] وتبعه الإمام القرطبي [2].

ومن أدلة مدنيتها :

١ – ما عزاه السيوطي في إتقانه[3] وكذلك في الدُّر المنثور [4] لأبي جعفر النحاس في كتابه الناسخ والمنسوخ [5] " بإسناد جيد ": عن مجاهد عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في عدِّ المكي والمدني من السور .. وفيه أنَّ سورة التحريم مدنية .." [6].

قلت : وذلك دون استثناء شيء منها .

٢ – النداء فيها بـ " يا أيها الذين آمنوا ".

يقول الشيخ محمود شلتوت – رحمه الله تعالى –:" إنَّ المتتبع للنداءات الإلهية في القرآن الكريم يجد أكثرها موجهاً إلى المؤمنين ، فقد بلغت نداءاتهم تسعة وثمانين نداء ، وأنَّه لم يقع نداءٌ واحد منها في آية مكية ، وإنَّما وقعت كلُّها في الآيات التي نزلت بعد أن تكون المسلمون بالهجرة جماعة لها كيان خاص ، وقوة خاصة ، وسبيل خاص "هـ[7].

١–[المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز ٥ – ٣٢٩ ط / دار الكتب العلمية بيروت].

٢–[الجامع الأحكام القرآن للقرطبي ١٠ – ٦٦٥٦].

٣–[الإتقان ١ – ٢٤ ، ٢٥ مكتبة دار التراث – القاهرة].

٤–[الدر المنثور ٨ – ٣٦٥ ط دار الفكر بيروت – الثانية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م].

٥–[الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ص ٢٣٨ – مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة]. وموضع الشاهد من الأثر :"... ونزل بالمدينة سورة الأنفال وبراءة والنور والأحزاب وسورة محمد والفتح والحجرات والحديد وما بعدها إلى التحريم "].

٦–[قال الإمام السيوطي بعد أن ساق هذا الأثر من كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس :" هكذا أخرجه بطوله ، وإسناده جيد ، رجاله كلهم ثقات من علماء العربية المشهورين "هـ [الإتقان ١– ٢٥].

٧–[تفسير القرآن الكريم للشيخ شلتوت ص ٩٨ ، ٩٩]. قلت : ويؤيد كلام الشيخ شلتوت ما ذكره السيوطي في إتقانه في ضوابط

٣ – ذكر المنافقين فيها في قوله – تعالى –:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[1]

ذلك أنَّ النِّفاق إنَّما كان ظهوره في المدينة [2] لَّما قويت شوكةُ المسلمين وصار لهم شأن عظيم .

٤ – الآثار الواردة في أسباب نزول هذه السورة تؤكد – بلا ريب – مدنيتها فحديث هذه الآثار – كما سيأتي بيانه – عن عائشة وحفصة وزينب بنت جحش – رضي الله عنهن – يَدلُّنا على مدنية سورة التحريم إذ هؤلاء – كما لا يخفى – لم يكنَّ أزواجاً لرسول الله – ﷺ – إلا بعد هجرته الشريفة – عليه الصلاة والسلام –.

قلت : تلك علامات ظاهرة على مدنية سورة التحريم دون استثناء شئ من مدنيتها .

لكنَّنا نرى من استثنى من مدنية سورة التحريم آيات منها نزلت بمكة .

وهذا ما نقله السيوطي في إتقانه عن قتادة حيث قال :" نزل في المدينة من القرآن : البقرة وآل عمران ، والنساء ... إلى أن قال .. " ويا أيها النبي لم تحرم ، إلى رأس العشر.. "هـ[3].

ويوضح لنا الشيخ الطاهر بن عاشور هذا القول فيقول :" وقال في

في المكي والمدني حيث قال :" أخرج الحاكم في مستدركه [٣ – ٢٠ رقم : ٤٢٩٥ وسكت عنه الذهبي . دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠] والبيهقي في الدلائل [٧ – ١٤٤ دار الريان للتراث] والبزار في مسنده [٤ – ٤١٥ بيروت] من طريق الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ، قال : ما كان " يا أيها الذين آمنوا " أنزل بالمدينة وما كان (يا أيها الناس) فبمكة . وأخرجه أبو عبيد في الفضائل عن علقمة مرسلا .

وأخرج عن ميمون بن مهران ، قال : ما كان في القرآن " يا أيها الناس " أو " يا بني آدم " فإنه مكي وما كان "يا أيها الذين آمنوا " فإنه مدني.

قال ابنُ عطية وابن الغرس وغيرهما : هو في " يا أيها الذين آمنوا " صحيح وأما " يا أيُّها الناس " فقد يأتي في المدني .." هـ[الإتقان ١ – ٤٧].

١–[سورة التحريم آية رقم : ٩].

٢–[قال مكي (كما في الإتقان ١ – ٤٨):" كلُّ سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية ؛ زاد غيره : سوى العنكبوت].

٣–[الإتقان ١ – ٢٨].

الإتقان عن قتادة : إنّ أولها إلى تمام عشر آيات وما بعدها مكي ، كما وقعت حكاية كلامه . ولعله أراد إلى عشر آيات ، أي أنّ الآية العاشرة من المكي إذ من البعيد أن تكون الآية العاشرة مدنية والحادية عشر مكية"هـ[1]

قلت : يقصد الشيخ الطاهر بن عاشور – وذلك على ما يفهم من قول قتاده – أنّ قوله تعالى :﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾[2] وهي الآية العاشرة من السورة أن لا تكون مدنية إذ إنّها مع تاليتها – أي قوله تعالى﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[3] – في سياق واحد كما هو واضح من عطف " وضرب " الثانية على " ضرب " الأولى .

فهما – أي هاتان الآيتان مع الآية الثانية عشر مما نزل بمكة .

قلت : لكن القول باستثناء هذه الآيات الثلاث من مدنية سورة التحريم مما يحتاج إلى نظر وذلك :

أولا : أنّ أثر قتادة – رغم صحته[4] – تضمن أشياء تتعارض مع

١–[التحرير والتنوير ١٣ – ٣٤٣].

٢–[سورة التحريم آية رقم : ١٠].

٣–[سورة التحريم آية رقم : ١١].

٤–[الأثر ذكره السيوطي في إتقانه حيث قال: قال أبو بكر بن الأنباري حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي ، حدثنا حجاج بن منهال ، نبأنا هشام عن قتادة قال : نزل في المدينة ..الخ" والأثر سنده صحيح وذلك كالآتي :

أ – أبو بكر بن الأنباري : (٢٧١ – ٣٢٨ هـ = ٨٨٤ – ٩٤٠ م) محمد بن القاسم بن محمد ابن بشار، أبو بكر الأنباري ، صاحب التصانيف الكثيرة . من كتبه (الزاهر – خ) في اللغة) و (إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل – و (عجائب علوم القرآن – خ) و (خلق الإنسان) و (الأمثال)

و (الأضداد – ط) وأجل كتبه (غريب الحديث) [الأعلام ٦ – ٣٣٤].

ب – إسماعيل بن إسحاق بن حماد بن زيد القاضي شيخ المالكية . روى عن عبد الله بن مسلمة القعنبي ، وحجاج بن منهال . ثقة صدوق .[الجرح والتعديل ٢ – ١٥٨ رقم ٥٣١ ط / بيروت ، والمعين في طبقات المحدثين ١ – ٢٥ لـ / محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي . دار النشر / دار الفرقان – عمان – الأردن – ١٤٠٤ الطبعة : الأولى ت : د همام عبد الرحيم سعيد].

ج – حجاج بن المنهال الأنماطي السلمي أبو محمد ثقة فاضل .[الجرح والتعديل ٣ – ١٦٧ رقم : ٧١١ ، وتقريب التهذيب لابن حجر ١ – ١٥٤ رقم ١٦٣ ط– دار المعرفة – بيروت].

د – هشام بن أبي عبد الله الدستوائي (ودستواء كورة من الأهواز كان يبيع الثياب التي تجلب منها فنسب إليها) روى عن قتادة ويحيى بن أبي كثير وحماد بن أبي سليمان وغيرهم قال فيه أبو داود : كان هشام الدستوائي أمير المؤمنين في الحديث . وقال فيه يحي بن معين : هشام الدستوائي ثبت . وقال ابن حجر : ثقة ثبت . توفى سنة ١٥٣ أو سنة ١٥٤ هـ [تقريب التهذيب لابن حجر ٢ – ٣١٩ رقم : ٨٩ ، و الجرح والتعديل ٩ – ٥٩ رقم ٢٤٠].

ما هو ثابت – بسند جيد – عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في بيان المكي والمدني ففي أثر قتادة أنّ الرَّعدَ والنحل والحجَّ مدنيات مع أنّ أثر ابن عباس يعدهن مكيات مع استثناء ثلاث آيات من آخر النحل وثلاث آيات من سورة الحج ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ.. [1]﴾ إلى تمام الآيات الثلاث :

فتقديم ما هو موقوف أوْلى مما هو مقطوع ، والأمر كما قال الإمام الألوسي – رحمه الله –:" الأقوى في

هـ – قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي أبو الخطاب البصري ثقة ثبت يقال ولد أكمه وهو رأس الطبقة الرابعة مات سنة سبع عشرة ومئة .[تهذيب الكمال ٢٣ – ٥١٧ رقم : ٤٨٤٨ لـ/ يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي . ط / مؤسسة الرسالة – بيروت / الأولى ، ١٤٠٠ – ١٩٨٠ تحقيق : د . بشار عواد معروف ، وتقريب التهذيب ١ – ١٢٣ رقم : ٨١ ، والجرح والتعديل ٧ – ١٣٣ رقم ٧٥٦].

١–[سورة الحج آية رقم : ١٩].

الاستدلال بالنقل عن الصحابة الذين شاهدوا الوحي والتنزيل "هـ"[1]

ثانيا : إذا كانت هذه الآيات مستثناة من مدنية سورة التحريم (على حدِّ ما ورد في هذا القول) فكيف كانت تعد في مكة ؟

إنَّ هذا القول لم يذكر أنَّ تلك الآيات من أية سورة كانت تُعدُّ في مكة إلى أن نزلت سورة التحريم بالمدينة وهذا غريب . ولم يعين أنه في أية سورة كان مقروءاً .؟

هذا عن مكان نزول السورة الكريمة .

أمَّا عن عدد آيها فقد اتفق أهلُ العدد على أنَّ عدَّةَ آيها اثنتا عشرة.[2]

وإذا ما استعرضنا السورة بوجه عام وجدناها تعرض في صدرها صفحة من الحياة البيتية لرسول الله ـ ﷺ ـ وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض ، وبينهن وبينه ...

وبمناسبة هذا الحادث وما ورد فيه من توجيهات ، وبخاصة دعوة الزوجين المتآمرتين فيه إلى التوبة . أعقبه في السورة دعوة إلى التوبة وإلى قيام أصحاب البيوت على بيوقم بالتربية ، ووقاية أنفسهم وأهليهم من النار . كما ورد مشهد للكافرين في هذه النار.

واختتمت السورة بالحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط كمثل للكفر في بيت مؤمن . وعن امرأة فرعون كمثل للإيمان في بيت كافر . وكذلك عن مريم ابنة عمران التي تطهرت فتلقت النفخة من روح الله وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين .. [3].

أمَّا عن مناسبة سورة التحريم بسابقتها ـ أي سورة الطلاق ـ فالمناسبة ظاهرة .. إذ كل من السورتين

---

١ -[روح المعاني ١ ـ ٦٠].

٢ -[التحرير والتنوير ١٣ ـ ٣٤٣].

٣- [ينظر : الظلال ٦ ـ ٣٦١٠].

يشترك في الافتتاح بخطاب النبي ﷺ كما يشترك كلٌّ منهما في الأحكام المخصوصة بالنساء كما أنَّ في آخر سورة الطلاق (أي في قوله تعالى ﴿ اللهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا [1] ﴾ ، ما يدلُّ على عظمة حضرة الله ـ تعالى ـ ، وكمال قدرته وكمال علمه ، ولما كان الأمر كذلك فلا يصح تحريم ما أحل الله ، ولهذا قال ـ تعالى ـ :{ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ}"هـ"[2].

ومن لطائف المناسبة بين السورتين ما ذكره الإمام السيوطي حيث قال :" ولَّما كانت تلك في خصام نساء الأمة ، ذكر في هذه خصومة نساء النبيّ ﷺ ، إعظاماً لمنصبهن أنْ يذكرن مع سائر النسوة ، فأفردن بسورة خاصة ، ولهذا ختمت بذكر امرأتين في الجنة : آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران "هـ"[3].

تلك عدة نقاط متصلة بالسورة الكريمة من حيث التسمية وسرها ومكان النزول وعدد الآيات وعرض السورة بوجه عام وصلة السورة بما قبلها .

وكان لا بُدَّ من بيان هذه النقاط لتكون عوناً على ما هو المقصود الأصلي من عنوان هذا البحث المتواضع " نداء الله الكريم في تفسير سورة التحريم "

وفيما يلي استعراض تلك النداءات ـ والله ولىُّ التوفيق ـ.

سادساً : استعراض النداءات في سورة التحريم :

---

١ -[سورة الطلاق آية رقم : ١٢].

٢ -[ينظر : مفاتيح الغيب ١٥ ـ ٥٨٥ والبحر المحيط ٨ ـ ٢٨٤].

٣ -[تناسق الدرر في تناسب السور ص ١٢٧ . للسيوطي ـ ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

أقول – وبالله التوفيق – :

إنَّ النَّاظرَ إلى النداءات الإلهية في هذه السورة الكريمة بوجه عام يجد أنَّ السورة قد اشتملت على خمسة نداءات ، بدأت بنداء النبي – ﷺ – ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١)

وختمت كذلك بندائه – ﷺ – ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٢)

وبين هذا وذاك يأتي النداء للمؤمنين في موضعين من السورة أولهما : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٣)

وثانيهما ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤)

ويتوسط بين هذين النداءين للمؤمنين نداءٌ واحد للكافرين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥)

تلك هي مواضع النداء في السورة الكريمة على سبيل الإجمال أمَّا على سبيل التفصيل فهي كالتالي :

النداء الأول ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦).

إنَّ أمر هذا النداء لرسول الله – ﷺ – والتي بدأت به السورة الكريمة

١–[سورة التحريم آية رقم : ١].
٢–[" " " : ٩].
٣–[" " " : ٦].
٤–[" " " : ٨].
٥–[" " " : ٧].
٦–[" " " : ١].

يدور حول معنى التكريم والعتاب أمَّا التكريم ففي ندائه – عليه الصلاة والسلام – بوصف النبوة تعظيماً لشأنه وعناية به – ﷺ – وأما العتاب فلأمر ما جرى منه – ﷺ – من تحريم ما أحله الله له .. يقول الإمام الألوسي – رحمه الله – :" وفي ندائه – ﷺ – بـ " يا أيها النبي " في مفتتح العتاب من حسن التلطف به والتنويه بشأنه – عليه الصلاة والسلام – ما لا يخفى"هـ (١)

ولكي يتضح هذا المعنى من هذا النداء نتعرف على سبب نزول الآية الكريمة والذي ورد في شأنه روايات كثيرة ونكتفي بما اشتهر منها وأول رواية روايةُ الصحيحين البخاري ومسلم من رواية عروة عن عائشة قالت : كان رسول الله – ﷺ – يحب الحلواء ويحب العسل وكان إذا صلى العصر أجاز على نسائه فيدنو منهن فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عُكَّةً (٢) عسلٍ فسقت رسول الله – ﷺ – منه شربة فقلت أمَا والله لنحتالن له فذكرت ذلك لسودة وقلت لها إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولي له يا رسول الله أكلت مغافير (٣) فإنَّه

١–[روح المعاني ١٥ – ٢١٩].

٢–[العُكَّةُ بالضم : آنيةُ السَّمْنِ أصغرُ من القِرْبة .[القاموس المحيط ١– ١٢٢٥ لـ/ مجد الدين الفيروز آبادي ، نشر مؤسسة الرسالة – الثانية ١٤٠٧ هـ].

٣–[المغافير : شيء كالصمغ ينضحه العرفط حلو كالناطف وله ريح منكرة والعرفط نوع من شجر العضاه والعضاه من شجر الشوك كالطلح والعوسج والعرفط ويقال قد أغفر العرفط إذا ظهر ذلك منه وخرج الناس يتغفرون إذا خرجوا يجمعون ذلك وواحد المغافير مغفور وليس في كلام العرب مفعول بضم الميم إلا ثلاثة أمثلة مغفور ومغرود (ضرب من الكمأة) ومنخور للمنخر . ينظر: شرح النووي لصحيح مسلم { ٥ – ٢٦ دار الغد } وتفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم ١ – ٢٦٢ لـ/ محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد بن

سيقول لا فقولي له ما هذه الريح — وكان رسول الله — ﷺ — يشتد عليه أن توجد منه الريح — فإنه سيقول سقتني حفصة شربة عسل فقولي له جرست نحله العرفط [1] وسأقول ذلك وقوليه أنت يا صفية فلما دخل على سودة قلت تقول سودة والذي لا إله إلا هو لقد كدت أن أبادئه بالذي قلت لي وإنه لعلى الباب فرقا منك فلما دنا رسول الله — ﷺ — قلت يا رسول الله أكلت مغافير ؟ قال (لا) . قلت فما هذه الريح ؟ قال (سقتني حفصة شربةَ عسل) . قلت جرست نحله العرفط فلما دخل عليَّ قلت له مثل ذلك ودخل على صفية فقالت له مثل ذلك فلمَّا دخل على حفصة قالت له يا رسول الله ألا أسقيك منه ؟ قال (لا حاجة لي به) . قالت تقول سودة سبحان الله لقد حرمناه قالت قلت لها اسكتي "[2]

وهناك رواية مشهورة في البخاري ومسلم أيضاً من حديث عبيد بن عمير عن عائشة أنَّ التي شرب عندها العسل: زينب بنت جحش ، فتواطأت حفصةُ وعائشةُ أن تقولا له ذلك القول [3].

يصل الأزدي الحميدي ط : مكتبة السنة — القاهرة — ١٤١٥ — ١٩٩٥ الطبعة: الأولى تحقيق: الدكتورة:زبيدة محمد سعيد عبد العزيز].

١-[جرست نحله العرفط : أي أكلت نحله من هذا الذي يجري من العرفط وهو المغافير ويقال المغاثير أيضا بالثاء ويقال للنحل جوارس أي أواكل وأصل الجرس الصوت الخفي يقال سمعت جرس الطير أي صوت مناقيرها على شيء تأكله وما سمعت لفلان جرسا أي حسًّا ولا صوتا .[تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم ١ — ٢٦٢].

٢-[أخرجه البخاري في صحيحه ٥ — ٢٠١٧ كتاب الطلاق باب { لم تحرم ما أحل الله لك }/ التحريم ١ / رقم : ٤٩٦٧ . وأخرجه مسلم في صحيحه ٢ — ١١٠٠ كتاب الطلاق ، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق رقم : ١٤٧٤].

٣-[ينظر : صحيح البخاري ٤ — ١٨٦٥ كتاب التفسير ، باب تفسير سورة الطلاق رقم: ٤٦٢٨ وكذلك : كتاب الطلاق ، باب { لم

قال الإمام ابن كثير — بعد أن ساق حديث عبيد بن عمير وحديث عروة —:" وقد يقال : إنهما واقعتان ولا بُعد في ذلك ... "هـ[1].

وقد ذكر الألوسي أنَّ الخفاجي نقل عن النووي في شرح مسلم : الصواب أنَّ شرب العسل كان عند زينب — رضي الله عنها — [2].

ومن الروايات في سبب نزول هذه الآية الكريمة أيضاً ما ذكره ابن الجوزي وهي " أنَّ حفصةَ ذهبت إلى بيت أبيها تتحدث عنده ، فأرسل النبيُّ — ﷺ — إلى جاريته فظلت معه في بيت حفصة وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة ، فرجعت حفصة ، فوجدتها في بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها ، وغارت غيرة شديدة ، فلما دخلت حفصة قالت : قد رأيت من كان عندك ، والله لقد سؤتني فقال النبيُّ — ﷺ — والله لأرضينك وإني مُسِرٌّ إليك سراً فاحفظيه ، قالت:وما هو؟ قال :" إني أشهدك أنَّ سريتي هذه عليَّ حرام رضى لك " وكانت عائشة وحفصة متظاهرتين على نساء النبي — ﷺ — فانطلقت حفصةُ إلى عائشة فقالت لها ، أبشري : إنَّ النبيَّ — ﷺ — قد حرَّم عليه فتاته " فنزلت هذه الآية"[3]

وقد ذكر القرطبي رواية ثالثة شاركه في روايتها ابنُ كثير وعبارة القرطبي " أنه أراد بذلك المرأة التي وهبت نفسها للنبي — ﷺ — فلم يقبلها لأجل أزواجه ، قاله ابن عباس وعكرمه ، والمرأة أم شريك"[4].

تحرم ما أحل الله لك } / التحريم ١ / رقم : ٤٩٦٦ . وصحيح مسلم ٢— ١١٠٠ كتاب الطلاق باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق رقم : ١٤٧٤].

١-[تفسير القرآن العظيم / لابن كثير ٨ — ١٨٩ دار الشعب].

٢-[روح المعاني ١٥ — ٢١٨].

٣-[رواه الطبري عن محمد بن سعد صاحب الطبقات من رواية عطية العوفي عن ابن عباس [جامع البيان ٢٨ — ص ١٠١ ط دار الحديث].

٤-[الجامع لا حكام القرآن ١٠ — ٦٦٥٧ ط / دار الريان للتراث].

وقد علق ابن كثير على هذه الرواية قائلاً :" وهذا قول غريب ، والصحيح أنه كان في تحريمه العسل"هـ[1].

أمَّا القرطبي فقد علَّقَ على الروايات الثلاث تعليقاً مشفوعاً بتعليل معقول فيقول :" أصح هذه الروايات أولها – وهي شربه العسل عند زينب والمتواطئتان حفصة مع عائشة – وأضعفها :... المرأة التي وهبت نفسها ، قال ابن العربي : وأما ضعفه في السند فلعدم عدالة رواته ، وأمَّا ضعفه في معناه فلأن ردَّ النبي – ﷺ – للموهوبة ليس تحريماً لها لأنَّ ما وهب له لم يحرم عليه إنما حقيقة التحريم بعد التحليل .

وأمَّا ما روى أنه حرَّم مارية القبطية فهو أمثل في السند وأقرب إلى المعنى لكنه لم يرد في الصحيح . وروى مرسلا "هـ[2]

وبنفس العبارة قال ابنُ العربي في رواية مارية وعن رواية العسل قال :" وإنَّما الصحيح أنه كان في العسل ، وأنه شربه عند زينب ، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه ، وجرى ما جرى ، فحلف ألا يشربه وأسرّ ذلك ونزلت الآيةُ في الجميع "هـ[3].

وقد رجّح الخازن هذا أيضاً على أنه ترجيح الكثرة من العلماء حتى لكأنه الإجماع إذ قال :" قال العلماء في سبب نزول الآية أنها في قصة العسل لا في قصة مارية المروية في غير الصحيحين ، ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح .

قال النسائي : إسناد حديث عائشة في العسل جيد صحيح غاية"هـ[4]

فالصحيح إذاً في أمر ما حرَّمه رسول الله – ﷺ – على نفسه أنَّه

١-[تفسير القرآن العظيم ٨ ــ ١٥٧].

٢-[الجامع لأحكام القرآن ١٠ ــ ٦٦٥٨].

٣-[أحكام القرآن ٤ ــ ١٨٤٦ ط / دار الفكر العربي / بدون].

٤-[تفسير الخازن ٤ – ٢٨٤ ط / الحلبي].

العسل لا مارية ذلك لأنَّ قصة مارية مروية في غير الصحيحين ولم تأت من طريق صحيح – كما ذكره الإمام النووي – رحمه الله –[1] [2].

وبعد أن تعرَّفنا على سبب نزول الآية الكريمة .. أي قوله – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ...﴾

نعود إلى هذا النداء مرَّة أخرى لنؤكد على أنَّ مضمونه مجرد عتاب من الله – تعالى – لرسوله – ﷺ – في شأن ما حرَّمه على نفسه دون وجود ما يدعو إلى ذلك ..

" وكونه – ﷺ – فعل ذلك مرضاة لأزواجه ودفعاً لغيرتهن مما لا يعد علَّةً تدعو إلى التحريم .. فإنَّ غيرتهن مما لا تجب مراعاته في المعاشرة إن كانت فيما لا هضم فيه لحقوقهن .

فجملة " تبتغي مرضاة أزواجك " عذر للنبي – ﷺ – فيما فعله من أنَّه أراد به خيراً وهو جلب رضا الأزواج لأنه أعون على معاشرته مع الإشعار بأنَّ مثل هذه المراضاة لا يُعبأ بها لأنَّ الغيرة نشأت عن مجرد معاكسة بعضهن بعضاً وذلك مما يختل به حسن المعاشرة بينهن ، فأنبأه الله أنَّ هذا الاجتهاد معارض بأنَّ تحريم ما أحَلَّ الله له يفضي إلى قطع كثير من أسباب شكر الله عند تناول نعمه وأن ذلك ينبغي إبطاله في سيرة الأمة .

١-[ينظر شرح الإمام النووي لصحيح مسلم ٥ ــ ٢٨].

٢-[أكثرت من الاستشهاد على هذا القول أي أن ما حرَّمه رسول الله – ﷺ – على نفسه هو العسل لأنَّ هناك من رجّح أنَّ الذي حرَّمه رسول الله – ﷺ – على نفسه هو مارية القبطية ومن هؤلاء ابن عطية في [المحرر الوجيز ٥ ــ ٣٣١] والجصاص في [أحكام القرآن ٣ ــ ٦٢١ ط / دار الكتب العلمية ــ بيروت] . وهناك من توقف في أمر ما حرَّمه رسول الله – ﷺ – على نفسه وهذا ما ذهب إليه الطبري وابن الجوزي .[ينظر جامع البيان ٢٨ ــ ١٠٢ وزاد المسير في علم التفسير ٨ ــ ٣٠٣ ط / المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤]. وعلى كلٍّ = = فهذا أو ذاك لا يقوى أمام القول الذي ترجح سنداً ومتناً أعني رواية الصحيحين والتي نصَّت على أن ما حرَّمه رسول الله – ﷺ – على نفسه هو العسل .

وذيل بجملة " والله غفور رحيم " استئناساً للنبي – ﷺ – من وحشة هذا الملام ، أي والله غفور رحيم لك مثل قوله ﴿ عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم ﴾ الآية[1] .. [2].

وإذا كان هذا النداء لا يعدو أن يكون مجرد عتاب لطيف من الله – تعالى – لرسوله – ﷺ – مع ما يوحي النداء بوصف النبوة من التكريم والتعظيم ..

فإنَّ الإمام الزمخشري يغالي في أمر هذا النداء الذي افتتحت به السورة الكريمة إلى معنى أبعد من العتاب وأقسى ، معتبراً أنَّ التحريم الذي صدر منه – ﷺ – يعد زلّة منه – ﷺ – وسأورد للقارئ الكريم عبارات الزمخشري في هذا الشأن مع التعقيب بالرَّد عليها نظراً لجلال مقام النبوة فضلاً عن عصمة الأنبياء التي لا يتفق معها كلام الزمخشري إلا إذا كان يقصد بالزلة خلاف الأولى .

ورد في الكشاف ما يلي :" وكان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرِّم ما أحلَّ الله لأنَّ الله – ﷻ – إنَّما أحلَّ ما أحلَّ لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله فإذا حرَّم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة " والله غفور رحيم " قد غفر لك ما زللت فيه " رحيم " قد رحمك فلم يؤاخذك به"هـ[3].

هذا هو كلام الإمام الزمخشري في أمْرِ هذا النداء ..

وأتساءل كما يتساءل غيري هل النبيُّ – ﷺ – قد غفل عن هذا المعنى الذي لاحظه الإمام الزمخشري من أنَّ الله – تعالى – أحلَّ ما أحلَّ لحكمة – ومصلحة عرفها في إحلاله وأن تحريم ذلك عندئذ يعد قلباً للمصلحة إلى مفسدة ..؟

١–[سورة التوبة آية رقم : ٤٣].

٢–[ينظر التحرير والتنوير ١٣ / ٣٤٦ ، ٣٤٧]

٣–[الكشاف ٦ – ١٥٥].

لا شك أنَّ النبي – ﷺ – لا يغيب عنه معرفة ذلك .

وقد قام بالرَّد على الإمام الزمخشري فيما ذهب إليه صاحب " الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال " فقال :" .. ما أطلقه الزمخشري في حق النبيِّ – ﷺ – تقوّل وافتراء والنبيُّ منه براء وذلك أنَّ تحريم ما أحلَّه الله على وجهين : اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرَّمهُ الله – ﷻ – وكلاهما محظور ولا يصدر من المتسمين بسمة الإيمان وإن صدر سلب المؤمن حكم الإيمان واسمه .

الثاني : الامتناع مما أحله – ﷻ – وحمل التحريم بمجرده صحيح لقوله (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ)[1] أي منعنا لا غير فقد يكون مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله وهذا مباح صِرف حلال ومحض ولو كان على المنع ترك المباح والإمتناع منه غير مباح استحالت حقيقة الحال بلا إشكال فإذا علمت بون ما بين القسمين فعلى القسم الثاني تحمل الآية والتفسير الصحيح يعضده فإنَّ النبي – ﷺ – حلف بالله لا أقرب مارية[2] ولما نزلت الآية كفَّر عن يمينه ويدل عليه " قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ" .. وهذا المقدار مباح ليس في ارتكابه جناح ، وإنما قيل له :" لم تحرم ما أحل الله لك " رفقاً به وشفقة عليه وتنويهاً لقدره ولمنصبه – ﷺ – أن يراعي مرضات أزواجه بما يشق عليه جرياً على ما ألف من لطف الله – تعالى – بنبيه – ﷺ – ... والزمخشري لم يحمل التحريم على هذا الوجه ، لأنه جعله زلة فيلزمه أن يحمله على المحمل الأول ، ومعاذ الله وحاش الله ، وإن آحاد المؤمنين يحاشى عن أن يعتقد

١–[سورة القصص آية رقم : ١٢].

٢–[سبق القول بأنَّ الصواب فيما حرمه رسول الله – ﷺ – على نفسه هو العسل .

تحريم ما أحلَّ الله له ، فكيف لا يربأ بمنصب النبي ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ عما يرتفع عنه منصب الأمة"هـ[1].

هذا ما قاله صاحب الانتصاف في الرَّد على ما سبق من كلام الإمام الزمخشري .. ويكفينا تأكيداً على أنَّ هذا النداء لا يعدو أن يكون عتاباً لطيفاً لرسول الله – ﷺ – رحمة منه ـــ تعالى ـــ بنبيه ورسوله وألا يحمِّل نفسه ما لم يكلف به .

ما ورد في الآيات بعد ذلك من ذكر تلك المظاهرة وإعلان الله عنها وكيف توعد الله من يتظاهر على رسول الله – ﷺ – ولو كان أقرب الناس إليه ..

ذلك أنَّ أمثال هذا التظاهر تمنع أو على الأقل تعوق الرسول – ﷺ – من أداء مهمة الرسالة ، وتبليغ الوحي الإلهي إلى الناس .

ولو كان ثمة مؤاخذة لرسول الله – ﷺ – على هذا التحريم لكان الكلام كلّه قد جرى على هذا السياق من اللوم وعدم العود .. وأنه لا تحريم ولا تحليل إلا بأمر منه ـــ تعالى ـــ ..

فذاك أشد وأخطر من ذكر أمر هذا التظاهر عليه – ﷺ –.

ولم يبق في أمر هذا النداء في أوَّل السورة الكريمة إلا أن نعرف وجه ندائه – ﷺ – بوصف النبوة دون وصف الرسالة ..

وفي هذا يقول الشيخ محمود شلتوت : رحمه الله :" النداء بوصف النبوة يكون موجهاً إلى جزئيات من تكاليف الرسالة ، وبخاصة ما يتصل بجهة التنفيذ أمَّا النداء بوصف الرسالة فلم يكن إلا في تحديد مهمة الرّسالة العظمى وما يتصل بها من تقوية القلب على أدائها،(بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

١-[الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لـ/ ابن المنير . على هامش تفسير الكشاف للإمام الزمخشري ٤ ـــ ١٢٥ ط / دار الفكر].

رَّبِّكَ)[1] (لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)[2] ولعلَّ ذلك يرجع إلى طبيعة لفظي (نبي) و (رسول) في اللغة العربية واقتضاء أولهما معنى العرفان والعلم واقتضاء الثاني مجرد التبليغ "هـ[3]

قلت وعلى أساس هذا الاختلاف اللغوي بين النبيّ والرسول نرى القرآن يغاير بينهما حسب ما يقتضيه السياق ومن ذلك أن يذكر النبيين والأنبياء في موضع لا يصلح فيه ذكر الرسل

وبيان ذلك أنَّ الله – سبحانه وتعالى – قد تولَّى حفظ رسله من أن تمتد إليهم أيد آثمة ، وذلك حتى يتمكن كلُّ رسول من البلاغ عن ربِّه فهذا ما توجبه الحكمة في الإرسال تصديقاً لقوله ـــ تعالى ـــ:﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ[4]﴾

يقول صاحب التحرير والتنوير في تفسير قوله ـــ تعالى ـــ ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ[5]﴾ :

"وإنَّما قال :(النبيين) لأنَّ (الرسل) لا تسلط عليهم أعداؤهم لأنه مناف لحكمة الرسالة التي هي التبليغ "هـ[6].

وما ورد من الآيات ينصر ذلك المعنى ويؤيده إذ أوقعت القتل على (النبيين) دون (الرسل) من مثل قوله ـــ تعالى ـــ(قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[7].

وانظر أيضاً إلى الآيات : في قوله ـــ تعالى ـــ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ

١-[سورة المائدة آية رقم : ٦٧].
٢-[سورة المائدة آية رقم : ١٧٦].
٣-[تفسير القرآن الكريم ص ٩٦].
٤-[سورة المائدة آية رقم : ٦٧].
٥-[سورة البقرة آية رقم : ٦١].
٦-[التحرير والتنوير ١ – ٥٢٩].
٧-[سورة البقرة آية رقم : ٩١].

الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ { آل عمران : ٢١ } وقوله ـ تعالى ـ ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ { آل عمران : ١١٢ } وقوله ـ تعالى ـ ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ { آل عمران : ١٨١ وقوله ـ تعالى ـ ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ { النساء : ١٥٥ }.

وهي كلُّ ما جاء في القرآن الكريم ، وقد وقع القتل فيها على مجموع لفظ " النبيّ " . وعلى العكس من ذلك نرى أنَّ القرآن في جانب (الرسل) يعبِّر بما يفهم منه الحفظ والنصرة في مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾[1].

ومن ثَمَّ كان ادعاء النصارى أنَّ عيسى قتله اليهود ادعاء منافياً لحكمة الإرسال ولكنَّ الله أنهى مدة رسالته بحصول المقصد مما أرسل إليه[2].

وفي ندائه ـ ﷺ ـ بوصف الرسالة في قوله (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ..) ممَّا يعبر صراحة بحفظ الله لخير المرسلين محمد ـ ﷺ ـ كما ينبئ عنه سياق الآية بعد ذلك في قوله (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) كما أنَّ السياق بعد ذلك يرشح أن يكون النداء بوصف الرسالة .. فهذه الآية جاءت في سياق الحديث عن أهل الكتاب فقبلها يقول ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَوْ

١ ـ [سورة غافر آية رقم : ٥١].

٢ ـ [ينظر : التحرير والتنوير ١ ـ ٥٢٩].

أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[1] وبعدها يقول ـ تعالى ـ : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[2]

ونداؤه ـ ﷺ ـ بوصف الرسالة في قوله (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ) الآية[3].

جاء كذلك في سياق الحديث عن أهل الكتاب .. ففي الآية ذاتها يقول ـ تعالى ـ ﴿ .. وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وكذلك الآيات التي بعدها في سياق الحديث عن أهل الكتاب .

فجاء النداء بوصف الرسالة هنا وهناك ليطمئن رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أنَّهم لن ينالوا منه كما نالوا من أنبيائهم من قبل . وكذلك ليعلم هؤلاء أن ليس لهم إلى رسول الله سبيل .

فحيث كان الأمرُ خاصاً بالتبليغ وما يلزم منه من حفظ المبلغ وعصمته أوثر النداء بوصف الرسالة.

وإن كان الأمر خاصاً بجزئيات من تكاليف الرسالة وما يتصل بذلك من تنفيذ أوثر النداء بوصف النبوة .

والله أعلم .

النداء الثاني من السورة الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا

١ ـ [سورة المائدة آية رقم : ٦٥ ، ٦٦].

٢ ـ [سورة المائدة آية رقم : ٦٨].

٣ ـ [سورة المائدة آية رقم : ٤١].

﴿ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1].

جاء هذا النداء الكريم للمؤمنين عقب النداء للنبيِّ – ﷺ – وبيان ما تضمنه من أمور تشريعية وأخلاقية ..

وهذا يدلُّ على العناية بطائفة المؤمنين مثل العناية بالأنبياء والمرسلين كما يدلُّ على أنَّ هؤلاء المؤمنين أقدر على تحمل مسئولية ما يتضمنه النداء من [illegible] ..

يقول الشيخ محمود شلتوت – رحمه الله –: "ناداهم بهذا الوصف الذي تركز في نفوسهم، تنبيهاً إلى أنَّ الإيمان من شأنه أن يحملهم على الاستجابة لما طلب منهم وكلفوا به، وتنبيهاً إلى أنهم بحكم اشتراكهم في ذلك الإيمان مسئولون عن هذه التكاليف التي هي من أحكام الإيمان، يسأل الشخص المؤمن عن نفسه، ويسأل عن أخيه، وهذا هو الأصل فيما يقرره الإسلام من تضامن أهله، ومسئولية بعضهم عن بعض في تنفيذ الأحكام والعمل بمقتضاها"هـ[2].

فالنداء عليهم بوصف المؤمنين لأنهم مظنة الاستجابة ..

إذ إنَّ المنادي لا ينادي إلا من عرف منه الاستجابة .. لذلك بلغت نداءات المؤمنين تسعة وثمانين نداء. تدور في مجملها حول الأخلاق والأحكام.

ففي الأخلاق مثلاً قوله – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3].

وقوله – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ

١–[سورة التحريم آية رقم : ٦].

٢–[تفسير القرآن الكريم ص ٩٩].

٣–[سورة الأنفال آية رقم : ٢٧].

عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

وقوله – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[3].

ومن ندائهم في الأحكام قوله – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[4].

وقوله – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[5].

إلى آخر تلك النماذج التي نرى من خلالها استنهاض المؤمنين بالنداء بهذا الوصف المحبب للنفوس، الحافز للعقول إلى مكارم الأخلاق في الأفراد والجماعات حثًّا على التحلي بها، وسموا بهم إلى أعلى مراتب الإنسانية وكذلك ناداهم في الأحكام حثًّا على امتثالها والعمل بمقتضاها.

١–[سورة الحجرات آية رقم :١١].

٢–[سورة الحجرات آية رقم : ١٢].

٣–[سورة المجادلة آية رقم : ١١].

٤–[سورة البقرة آية رقم : ١٨٣].

٥–[سورة المائدة آية رقم : ٢].

وإذا كانت نداءات المؤمنين قد بلغت العددَ الكثير بوصف الإيمان فإننا نجد في المقابل نداءاً واحداً للمنكرين الجاحدين (بوصف الكفر) في موضع واحد لا يملكون فيه إلا الإجابة والخضوع ، وذلك عندما يناديهم رب العزة ــ تبارك وتعالى ــ في الآخرة حيث الجزاء والحساب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

وإنَّما لم ينادهم في الدنيا بهذا الوصف لئلا يلزم منه عبث إذ كيف ينادي على من لا يؤمن به ولا يستجيب له ؟

ونعود إلى النداء الكريم في قوله ــ تعالى ــ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2]

فنقول : إنَّ هذه الآية وما تضمنها من نداء مناسبٌ لما سبق من آيات وذلك أنَّ الله " لَّما وعظ أزواج النبي ــ ﷺ ــ خاصة أتبع ذلك بموعظة عامة للمؤمنين وأهليهم "[3]

يقول الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ:" كانت موعظةُ نساء النبي ــ ﷺ ــ مناسبة لتنبيه المؤمنين لعدم الغفلة عن موعظة أنفسهم وموعظة أهليهم وأن لا يصدّهم استبقاء الودّ بينهم عن إسداء النصح لهم وإن كان في ذلك بعض الأذى .

وهذا نداء ثان موجه إلى المؤمنين بعد استيفاء المقصود من النداء الأول نداء النبي ــ ﷺ ــ بقوله ــ تعالى ــ:(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) .

وجه الخطاب إلى المؤمنين ليأتنسوا بالنبيِّ ــ ﷺ ــ في موعظة أهليهم"هـ[4].

١-[سورة التحريم آية رقم : ٧].

٢-[سورة التحريم آية رقم : ٦].

٣-[البحر المحيط ٨ ــ ٢٨٧].

٤-[التحرير والتنوير ١٣ ــ ٣٦٥].

إنَّ هذا النداء مع ما تضمنه من التنبيه والتحذير فإنَّه فوق ذلك متضمن للطف الله ــ تعالى ــ ورحمته بعباده المؤمنين . إذ يحذرهم من هذه النار التي وقودها الناس والحجارة ، ولا شك أنَّ من يخبر إنساناً بخطر ما يعد رحيماً به مشفقاً عليه .

ومجمل النداء هنا ــ كما هو بيِّن ــ يدور حول تبعة المؤمن ومسئوليته تجاه أهله بغية النجاة من نار وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ ..

يقول الأستاذ سيد قطب :" إنَّ تبعة المؤمن في نفسه وأهله تبعة ثقيلة رهيبة . فالنَّار هناك وهو متعرض لها هو وأهله ، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك . إنَّها نار فظيعة مستعرة :" وقودها الناس والحجارة " ... "هـ[1].

ولا يخفى أنَّ وقاية الإنسان نفسه وأهله من هذه النار يكون باتباع ما أمر به الله ورسوله ، واجتناب ما نهى عنه الله ، وأن يكون هواه تبعاً لما جاء به رسول الله ــ ﷺ ــ وأن يكون له قبل ذلك معرفة بأوامر الله ونواهيه ومقاصد الشرع الحكيم .. وأن يعلم ذلك أهله ويؤدبهم على أساس منه ويأخذهم بذلك كما يأخذ نفسه ، ويأطرهم على الحق أطراً [2] ويلزمهم به إلزاماً .. فقد روى الطبري بسنده عن قتادة قال : يقيهم بأن يأمرهم بطاعة الله وينهاهم عن معصيته وأن

١-[الظلال ٦ ــ ٣٦١٨].

٢-[الأطر : عطف الشيء تقبض على أحد طرفيه فتعوجه .. وأطره فتأطر : عطفه فانعطف ، كالعود تراه مستديراً إذا جمعت بين طرفيه . وفي الحديث عن النبيِّ ــ ﷺ ــ أنه ذكر المظالم التي وقعت فيها بنو إسرائيل والمعاصي فقال :" لا والذي نفسي بيده حتى تأخذوا على يدي الظالم وتأطروه على الحق أطرا "... قوله تأطروه على الحق (تعطفوه عليه).[لسان العرب ٤ ــ ٢٤ دار صادر بيروت] والحديث أخرجه الترمذي في سننه ٥ ــ ٢٥٢ كتاب تفسير القرآن باب ٦ ومن سورة المائدة . رقم ٣٠٤٧ قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب].

يقوم عليهم بأمر الله يأمرهم به ، ويساعدهم عليه ، فإذا رأيت لله معصيةً ردعتهم عنها وزجرتهم عنها"[1]

قال الألوسي :" استدلّ بها على أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب من الفرائض وتعليمه لأهله"هـ[2].

ولقد تتابعت الوصايا من رسول الله – ﷺ – في أمر هذه الوقاية والتأكيد عليها ومن ذلك قوله –ﷺ– :" أيقظوا صواحبات الحجر "[3].

وكان إذا أوتر يقول :" قومي فأوتري يا عائشة "[4].

وما ورد في أمر هذه الوقاية وكيفية القيام بها تجاه النفس والأهل كثير يؤخذ من مظانه ..

١-[جامع البيان ٢٨ – ١٠٧].

٢-[روح المعاني ١٥ ــ ٢٣٢].

٣-[صحيح البخاري ١ ــ ٥٤ كتاب العلم باب العلم والعظة بالليل رقم : ١١٥].

٤-[صحيح مسلم ١ ــ ٥١١ كتاب الصلاة باب صلاة الليل رقم : ٧٤٤].

وقبل الانتقال إلى النّداء التالي في السورة الكريمة فإنّ هناك سؤالاً يطرح نفسه وهو إذا كانت النار كما قال الله أعدت للكافرين في الآية الكريمة : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[5] ، فلماذا أمر المؤمنون باتقائها مع أنها خصصت للكافرين ؟.

يجيب الإمام الرازي على ذلك فيقول :" الفُسّاق وإنْ كانت دركاتهم فوق دركات الكفار فإنّهم مع الكفار في دار واحدة ، فقيل للذين آمنوا :﴿قُوا أَنفُسَكُمْ ..﴾ باجتناب الفسق ومجاراة الذين أعدت لهم هذه النار ، ولا يبعد أن يأمرهم بالتوقي من الارتداد "هـ[6].

وقريب من ذلك يقول الإمام أبو السعود – رحمه الله –:" وأمرُ المؤمنين باتّقاء هذه النار المعدة للكافر كما نصّ عليه في سورة البقرة للمبالغة في التحذير "هـ[1]

وعبارة الإمام الصّاوي في هذا المقام :" وإنّما خوطب بذلك المؤمنون تخويفاً لهم عند الارتداد ، وللمنافقين الذين هم مؤمنون ظاهراً "هـ[2].

قلت : ومن هنا تظهر حكمة النداء بـ " يا " على القول بأنها لمتوسط البعد ذلك أن الله ــ تعالى ــ لم ينادهم بما يدل على البعيد لأنّهم قريبون من رب العالمين ــ سبحانه وتعالى ــ بالطاعة والإنابة ولم ينادهم بما يدلّ على هذا القرب ليبقوا على حذر من رب العالمين ــ سبحانه وتعالى ــ وعدم الأمن من مكره ــ تعالى ــ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3]

١-[إرشاد العقل السليم ٨ ــ ٢٦٨].

٢-[حاشية الصاوي (أحمد بن محمد الخلوتي ، الشهير بالصاوي) على الجلالين ٤ – ص ١٦٨ ط / الحلبي].

٣-[سورة الأعراف آية رقم : ٩٩].

فليحذر هؤلاء المؤمنون أن يقعوا فيما وقع فيه غيرهم من أهل الكفر والخسران الذين لم يستجيبوا له ــ تعالى ــ.. كما ينبئ عن ذلك أيضاً النداء التالي في السورة الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4]

وإلى القارئ الكريم الحديث عن هذا النداء ومغزاه .

النداء الثالث :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

إنّ أول ما يلفت نظرنا إلى هذا النداء :

أوّلاً : أنّه لم يرد في كتاب الله ــ تعالى ــ نداء من الله على أهل الكفر بوصف الكفر إلا في هذا الموضع من سورة التحريم .

ثانياً : أنّ النداء هنا على أهل الكفر – كما هو ملاحظ – ليس في دار التكليف – أي دار الدنيا – بـ

٤-[سورة التحريم آية رقم : ٧].

في الدار الآخرة أي دار الثواب والعقاب .

وينتج عن هذا الأمر وسابقه أن نقول :

إنّ نداء الله ــ تعالى ــ على أهل الكفر بهذا الوصف لم يكن في الدنيا لئلا يلزم منه عبث إذ كيف ينادي ربُّ العزة بأمر تكليفي على من ينكره ويجحده ..؟!

كما أنّ نداءهم في الدار الآخرة ــ وهي ليست دار تكليف ــ يدلنا على أنّ النداء هنا ليس لإثبات أمرٍ أو نهيٍ يجازى عليه الإنسان بل المراد من النداء هنا القهر والتيئيس والتحقير .. يدلُّ على ذلك أنّ اعتذارهم أو عدمه لا اعتداد به في الحالتين إذ لن يحصل من هذا أو ذاك قبول منهم .

وإذا كان الأمر كذلك فما جدوى هذا النداء في هذا الموضع من السورة الكريمة ؟

يذكر العلماء أنّ مجيء هذا النداء في موضعه من السورة الكريمة ليؤكد من تحذير المؤمنين من الموبقات في النار ، وذلك على منوال القول الدارج " الكلام لك واسمعي يا جاره " ...

يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله :" وذكر هذه المقالة هنا استطراد يُفيد التنفير من جهنم بأنها دار أهل الكفر كما قال ــ تعالى ــ: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[1] ، وإلاّ فإنّ سياق الآية تحذير للمؤمنين من الموبقات في النار "هـ"[2].

فالآية بهذا الترتيب " تمهيدٌ ضمني للمؤمنين وإشعار بأنّ معصية الله ورسوله ربما تؤدي إلى الكفر "[3]

وحين ذاك لا ينفع الندم ولات ساعة مندم .. فلا تقبل معذرة .. ولا تقال عثرة .. ولا ينفع ندم ولا توبة .

١-[سورة البقرة آية رقم : ٢٤].

٢-[التحرير والتنوير ١٣ - ٣٦٦ ، ٣٦٧]

٣-[الميزان في تفسير القرآن الشيخ/ محمد حسين الطباطبائي ١٩ ــ ٣٣٥ بيروت - الثانية - ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م].

وإذا كان هذا النداء على الكافرين حاصلاً في الآخرة ، وأُتي به في وسط النداء للمؤمنين في دار الدنيا ــ لانتفاع المؤمنين به دون غيرهم ــ ، فإنّ ذكره في كتاب الله ــ تعالى ــ وكونه كلاماً يتلى على أسماع الخلق فيه ما فيه من قطع الأعذار على الكافرين ، والإسراع في تدارك الفرصة قبل فوات الأوان ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حيَّ عن بينة .

وإذا كانت الآية الكريمة لم تبين ما نوع هذا الاعتذار الذي نهي عنه هؤلاء الكافرون في الدار الآخرة فلعلّ ذلك لتصوير هول الموقف وشدته وأنّ اعتذارهم إذ لم يعتد به فلا ضرورة لذكر نوعه ..

ومن الممكن الاستدلال على نوع هذا الاعتذار من آياتٍ أخرى كما في قوله ــ تعالى ــ ﴿ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾[1]

وقوله ــ تعالى ــ ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾[2]

وقوله ــ تعالى ــ حين يصور موقف الكفار وهم واقفون على النار في مشهد يثير الفزع ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[3]

وموقفهم وهم بين أطباقها يعذبون ويصرخون فيها يقولون ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[4] وأخرى

١-[سورة الأعراف آية رقم: ٣٨].

٢-[سورة سبأ آية رقم : ٣١].

٣ -[سورة الأنعام آية رقم : ٢٧].

٤ -[سورة فاطر آية رقم : ٣٧].

يقولون ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ (١)

بل يبلغ بهم سوء العذاب أن يكذبوا على ربهم يظنون أن الكذب ينفعهم بل ويقسمون بالله على ما يكذبون ويعتذرون به فيقولون ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (٢)

ولكن كل ذلك لا يفيد ولا يبدئ ولا يعيد بل يرمي عليهم بكل قسوة يستحقونها .. هذا وعيدنا غير مكذوب :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) فما ظلمناكم ولكنكم أنتم الظالمون .

هذا هو حال الكافرين يوم القيامة فالنار مثواهم وليس لهم إلا النار .

أمَّا المؤمنون الذين يسمعون هذا النداء وما فيه من شدة وإرعاد وزجر ووعيد .. فإنهم يتساءلون عن كيفية النجاة من هذا المصير .. فجاء النداء التالي ليوضح لهم خير الطرق إلى تلك النجاة وأفضل السبل المؤدية إلى وقاية النفس من هذه النار فقال ـ تعالى ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤)

وهذا هو النداء الرابع في السورة الكريمة نرى فيه " إعادة خطاب المؤمنين وإعادة ندائهم ، والفرق بين النداءين أي النداء الأول للمؤمنين في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. ﴾ الآية

١ -[سورة المؤمنون آية رقم : ١٠٧].
٢ -[سورة الأنعام آية رقم : ٢٣].
٣ -[سورة التحريم آية رقم : ٧].
٤ -[سورة التحريم آية رقم : ٨].

والنداء الثاني لهم أي قوله ـ تعالى ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا .. ﴾ الآية

أنَّ الأول نداء للواعظين لأنفسهم وأهليهم بالنصيحة والإرشاد إلى ما فيه خير ، وأمَّا الثاني فهو نداء للموعوظين ، أمر المؤمنون فيه بالتوبة من الذنوب إذا تلبسوا بها لأنَّ ذلك من إصلاح أنفسهم بعد أنْ أمروا بأن يجنبوا أنفسهم وأهليهم ما يزج بهم في عذاب النار ، لأنَّ اتقاء النار يتحقق باجتناب ما يرمي بهم فيها ، وقد يذهلون عما فرط من سيئاتهم فهدوا إلى سبيل التوبة التي يمحون بها ما فرط من سيئاتهم.."(١)

كما أنَّ مجيء هذا النداء على المؤمنين بالتوبة مباشرة بعد نداء الكافرين ، وذكر مصيرهم مما يدلُّ على رحمة الله ـ تعالى ـ وشفقته بجماعة المؤمنين كما يشير إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (٢)

وفيه أيضاً اهتمام خاص بتلك الطائفة المؤمنة وذلك ببيان ما يصلح حالهم في الدنيا بالتوبة والإنابة وفي الآخرة بالجنة ودار الكرامة ..

وإذا كان هذا النداء للمؤمنين بوصف الإيمان هو النداء الثاني لهم في سورة التحريم فإنه في نفس الوقت يعد آخر نداء من التسعة والثمانين نداء الواردة في نداء طائفة المؤمنين بوصف الإيمان .

واختيار التوبة في هذا النداء لتكون آخر أمرٍ من هذه النداءات مما يدلُّ على أهمية أمر التوبة ، وعدم التواني في تنفيذها ، إذْ قد عُهد أنَّ ما يوصى به في آخر الكلام يكون محل الاهتمام الشديد .

وقد أفاض العلماء في أمر هذه التوبة النصوح الواردة في هذا النداء من حيث معناها وشروطها ..

١ -[التحرير والتنوير ١٣ - ٣٦٧].
٢ -[سورة الأحزاب آية رقم : ٤٣].

فهي في اللغة من " تاب : عاد إلى الله ورجع وأناب وتاب الله عليه أي عاد عليه بالمغفرة كقوله ـ تعالى ـ ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١)

أي عودوا إلى طاعته وأنيبوا إليه ، والله هو التواب يتوب على عبده بفضله إذا تاب إليه من ذنبه " (٢)

وقال النووي :" المراد بالتوبة هنا : الرجوع عن الذنب " (٣)

أمَّا معنى " النصوح " فهي من النصح . وهو كما يقول الراغب :" تحري فعل أو قول فيه صلاح لصاحبه . قال تعالى ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (٤) ... وهي مأخوذة من قولهم : نصحت له الوُدَّ أي أخلصتُهُ . يقال : عسل ناصح أي خالص من الشمع ، أو من قولهم : نصحت الجلد : خطته ، والناصح الخياط ، والنِّصاح : الخيط أي إحكمته . فقوله : ﴿تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾ هو من أحد هذين المعنيين إمَّا الإخلاص وإمَّا الإحكام "(٥)

وقد ذكر الشيخ زادة في حاشيته معنىً آخر وهو الصدق قال :" وقيل النصح : الصدق من قولهم : نصحت الإبل الشرب تنصح نصوحاً أي صدقته ، وأنصحتها أنا أي : أرويتها ، ومنه التوبة النصوح أي الصادقة التي يقلع بها صاحبها عن المعصية قلباً وقالباً ، ويندم على ما صدر

---

١ -[سورة النور آية رقم : ٣١]

٢ -[لسان العرب ١ ـ ٢٣٣ دار صادر بيروت].

٣ -[شرح النووي على صحيح مسلم ١٧ ـ ٥٩ ط / دار إحياء التراث العربي بيروت / الثانية ١٣٩٢هـ].

٤ -[سورة الأعراف آية رقم : ٧٩].

٥ -[معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص ٥١٥ ، ٥١٦ ط دار الفكر ـ بيروت . وينظر محاسن التأويل ١٦ ـ ٥٨٦٨ / الشيخ / محمد جمال الدين القاسمي - ط - عيسى البابي الحلبي - الأولى - ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٧٥ م . والجامع لأحكام القرآن ١٠ - ٦٦٧٦].

منه كمال الندم ، ونصح التوبة بمعنى : صدقها يستلزم كون صاحبها ناصحاً لنفسه خالصاً في إرادة الخير لها..."(١).

ووصف التوبة بالنصوح إنَّما هو " على سبيل المجاز والمبالغة معاً كقولهم : زيد عدل . إذ النصح صفة التائب فهو ينصح نفسه بالتوبة فيأتي بها على طريقها وهي خلوصها من جميع الشوائب ، كأنَّ النصح من التائب بلغ مبلغاً في القوة والخلوص بحيث يسري إلى صفته التي هي التوبة "(٢)

أو هي تنصح الناس ، أي يكون متعلق النصح هم الناس لا نفس التائب ، أي تدعوهم إلى مثلها لظهور أمرها على صاحبها ، واستعماله الجد والعزيمة في العمل بمقتضياتها "(٣)

أمَّا عن شروط التوبة فإذا كانت في حق من حقوق الله ـ تعالى ـ فلها ثلاثة شروط وإذا كانت في حق من حقوق العباد فيضاف شرطاً رابعاً ذكر هذا ابن كثير وغيره على النحو التالي : قال العلماء : التوبة النصوح هو أنْ يقلع عن الذنب في الحاضر ويندم على ما سلف منه في الماضي ويعزم على ألا يفعل في المستقبل ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه "(٤)

والأمر بالتوبة في الآية الكريمة على الفرض ذكر هذا القرطبي وغيره وعبارة الإمام القرطبي :" وهي فرض على الأعيان في كلّ الأحوال والأزمان"(٥)

تلك هي التوبة النصوح فإذا ما توافرت بمعناها وشروطها " فهي مرجوة إذن في أن يكفر الله بها السيئات . وأن يدخل المؤمنين الجنات . في اليوم الذي يخزي فيه الكفار كما

---

١ -[حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي ٤ ـ ٥١٤ ط / المكتبة الإسلامية بديار بكر - بتركيا].

٢ -[حاشية القُونَوي (إسماعيل بن محمد بن مصطفى القُونَوي) على البيضاوي ١٩ ـ ٢١٠ بيروت].

٣ -[ينظر : البحر المحيط ٨ ـ ٢٨٨ وإرشاد العقل السليم ٩ ـ ٢٦٩].

٤ -[تفسير ابن كثير ٤ ـ ٣٩٢ وينظر روح المعاني ١٥ ـ ٢٣٤].

٥ -[الجامع لأحكام القرآن ١٠ ـ ٦٦٧٦].

هم في المشهد الذي سبق هذا النداء .

ولا يخزي الله النبيَّ والذين آمنوا معه .

وإنَّه لإغراء مطمع ، وتكريم عظيم . أن يضمَّ الله المؤمنين إلى النبي ـ ﷺ ـ فيجعلهم معه صفاً يتلقى الكرامة في يوم الخزي . ثم يجعل لهم نوراً " يسعى بين أيديهم وبأيمانهم " نوراً يعرفون به في ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب ..

وهم في رهبة الموقف وشدته يلهمون الدعاء الصالح بين يدي الله : "يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " ..

إنَّ الدعاء هنا نعمة يمنُّ بها الله عليهم تضاف إلى منن الله بالتكريم وبالنور . فأين هذا من النار التي وقودها الناس والحجارة ؟

إنَّ هذا الثواب ، كذلك العقاب ، كلاهما يصور تبعة المؤمن في وقاية نفسه وأهله من النار ، وإنالتهم هذا النعيم في جنات تجري من تحتها الأنهار... "[1]

---

١ -[الظلال ٦ ـ ٣٦١٨].

النداء الخامس في السورة الكريمة (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)[2]

هذا هو النداء الخامس والأخير في هذه السورة الكريمة كما أنَّه في نفس الوقت آخر النداءات للنبيِّ ـ ﷺ ـ من المواضع الخمسة عشرة الواردة في كتاب الله ـ تعالى ـ مع ملاحظة أنَّ هذا النداء قد جاء قبل ذلك في سورة التوبة آية رقم (٧٣) بنفس اللفظ .

وتلك اعتبارات ينبغي ملاحظتها عند دراسة هذا النِّداء .

وأبدأ ببيان وجه ارتباط هذا النداء بسابقه في هذه السورة الكريمة فأقول : من العجب أنَّ بعض[3] مفسري كتاب الله ـ تعالى ـ لا يرى

٢-[سورة التحريم آية رقم : ٩].

٣-[هو الأستاذ / محمد عزة دروزة في تفسيره المسمى (التفسير الحديث ١٠ ـ ١٥٢ ط / دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٨١ هـ)

ـ بعد الاطلاع على ما تيسر له من كتب التفسير ـ مناسبة لهذه الآية الكريمة .. إذْ هي تبدو في نظره مستقلة عمَّا قبلها وما بعدها سياقاً وموضوعاً .. فهي استطراد بعد الآيات السابقة التي دعت إلى التوبة واجتناب عذاب الله ، وأشارت إلى مصير الكفار الأخروي ، وعدم جدوى اعتذارهم لتأمر النبي ـ ﷺ ـ بالوقوف من الذين كفروا بالله ورسالته .. وهم الكافرون وشرارهم المنافقون موقف الشدة والمجاهدة ، ومثل هذا الاستطراد غير نادر في نظم القرآن"[1]

قلت وهذا القول من الضعف بمكان .. فمناسبة هذه الآية لسابقها ولاحقها [2] ظاهرة .. وما كان ينبغي التسرع في هذا الأمر فالمناسبة في كتاب الله ـ تعالى ـ تحتاج إلى إنعام النظر وإعمال العقل بقدر الطاقة فإن لم نصل إليها فلا يعني ذلك عدم وجودها..

ولنسمع إلى مشاهير العلماء الذين عقدوا المناسبة بين هذه الآية وسابقها فمنهم على سبيل المثال : الخطيب الشربيني والشيخ زادة والطاهر بن عاشور أمَّا الخطيب الشربيني فيقول :" لمَّا ذكر ما تقدم من لين النبي ـ ﷺ ـ لأضعف الناس وحسن أدبه وكرم عشرته لأنَّه مجبول على الشفقة على عباد الله والرحمة لهم ، أمره سبحانه بالغلظة والشدة على أعدائه يقول تعالى ـ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ..) الآية . فالغلظة عليهم من اللين لله ـ تعالى ـ كما أنَّ اللِّين لأهل الله من خشية الله ـ تعالى ـ "هـ[3]

---

١ -[التفسير الحديث ١٠ ـ ١٥٢].

٢-[في مناسبة هذه الآية للاحقها يقول الطَّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ:" أعقب جملة (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) الآية . المقصود منها تهديدهم بعذاب السيف في الدنيا وإنذارهم بعذاب الآخرة وما قارن ذلك من مقابلة حالهم بحال المؤمنين بأنْ ضرب مثلين للفريقين بنظيرين في حاليهما لتزداد الموعظة وضوحاً ويزداد التنويه بالمؤمنين استنارة .هـ [التحرير والتنوير ١٣ـ ٣٧٣].

٣-[السراج المنير ٤ ـ ٣٣٤ . دار المعارف بيروت / الثانية بدون تاريخ].

هذا ما ذكره الخطيب الشربيني في مناسبة هذه الآية لسابقها ، وما أجملها من مناسبة وإنْ كان قد جعل الربط بين أوّل آية في السورة وهذه الآية رقم : ٩ لكن مع ذلك نجد الربط واضحاً إذ إن الآيتين تشتركان في وحدة النداء بـ" أيها النبي " والأولى بيان للرحمة الرحيمة للنبي ـ ﷺ ـ ولينه العجيب لأضعف الناس وهن أزواجه الذي بلغ به أن حرم على نفسه ما تحبه وما يهواه طبعه ..

أمّا النداء الثاني فإنّه كان في المقابل لذلك وهو الغلظة والشدة على أعداء الله الذين ليسوا أهلاً لهذه الرحمة .. وغير جديرين بهذه الرأفة .. فلا يصح أن توضع هذه الرحمة في غير موضعها وأن تمنح لغير أهلها ..

أمّا الشيخ زادة فيقول في حاشيته:" ثم إنّه ـ تعالى ـ لما عاتب أزواج النبي ـ ﷺ ـ ودعاهن إلى ما هو أصلح لهن ثم خوف المؤمنين بعذاب الآخرة ودعاهم إلى التوبة النصوح دعا النبي ـ ﷺ ـ إلى الجهاد ودعا كل طائفة إلى ما هو الأصلح "هـ[1]

هذا ما ذكره الشيخ زادة في مناسبة هذه الآية لسابقتها وأنها تدور مع ما سبقها من آيات حول الأصلح والمناسب لكل طائفة ..

ولعلّ العبارة الدقيقة في مناسبة هذه الآية لسابقها هي ما ذكره الشيخ الطاهر ابن عاشور إذ يقول :" لمّا أبلغ الكفار ما سيحل بهم في الآخرة تصريحاً بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾ وتعريضاً بقوله ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ أمر رسوله ـ ﷺ ـ بمسمع منهم بأن يجاهدهم ويجاهد المستترين لكفرهم بظاهر الإيمان نفاقاً ، حتى إذا لم تؤثر فيهم الموعظة بعقاب الآخرة يخشون أن يسلط عليهم عذاب السيف في العاجلة فيقلعوا عن الكفر فيصلح نفوسهم .

١-[حاشية الشيخ زادة على البيضاوي ٤ ـ ٥١٥].

وإنّما أمر رسوله ـ ﷺ ـ بذلك لأنّ الكفار تألبوا مع المنافقين بعد هجرة النبي ـ ﷺ ـ فاتخذوهم عيوناً لهم وأيدي يدسّون بها الأذى للنبي ـ ﷺ ـ وللمؤمنين .

فهذا نداء ثان للنبي ـ ﷺ ـ يأمره بإقامة صلاح عموم الأمة بتطهيرها من الخبثاء بعد أن أمره بإفاقة من عليهما الغفلة عن شيء من واجب حسن المعاشرة مع الزوج "هـ[1]

قلت والنداء هنا مع ما سبق يوقفنا على معانٍ شتى منها :

أولاً : أنه لا يمكن الوقوف أمام الجبهة الخارجية والمتمثلة في الكفار والمنافقين قبل إصلاح الجبهة الداخلية المتمثلة في النفس والأهل .

وعلى ذلك سارت النداءات في آيات تلك السورة الكريمة تبعاً لمشهور القول : الأهم فالمهم .

ثانياً : يبدو في بادئ النظر أنّ النداء الثاني للنبيّ ـ ﷺ ـ في السورة الكريمة ـ والذي فيه الأمر بمجاهدة الكفار والمنافقين ـ يعد أهم من النداء الأول من حيث المضمون .

لكن بإنعام النظر يتبين أنّ تقديم النداء الأول وتأخير الثاني يعد من بلاغة كتاب رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك أنّ الله ـ تعالى ـ يريد أن يهيئ لنبيه ـ ﷺ ـ طريق دعوته ، ولمّا كان تظاهر هاتين المرأتين عليه ـ ﷺ ـ وهما من جملة أزواجه ـ يعد تعويقاً لذلك ، بدأ الله ـ تبارك وتعالى ـ بعلاج هذا الأمر أولاً معاتباً ومهدداً بل وصل أمر هذا التهديد لهما إلى درجة تجعل المرء يتساءل : أمن أجل شربة عسل تجتمع تلك الجنود على هاتين المرأتين بدأ من الملك الجبار ـ تبارك وتعالى ـ وانتهاءً بالملائكة ـ علماً بأن هذا العدد الهائل من الجنود لم يأت في أي موضع آخر من القرآن الكريم ـ فلماذا هذا كله ؟

لأنّ المقصود الأصلي هو قطع أمل المنافقين والكفار في خراب البيت

---

١ -[التحرير والتنوير ١٣ ـ ٣٧١،٣٧٢].

المسلم ، فعندما يسمعون أولاً ذلك العتاب والتهديد والوعيد لأقرب الناس إلى رسول ـ ﷺ ـ فإنَّ الخوف سيتملك قلوبهم .. لأنَّ تلك المعاتبة كانت في أمر هو في الحقيقة لا يساوي شيئاً بجانب ما يصنعه هؤلاء من كفرٍ وعناد ومؤامرات ...

وعندما يسمعون ثانياً هذا النداء للنبي ـ ﷺ ـ يأمره فيه ربه ـ تبارك وتعالى ـ بالوقوف لهم تزداد حسرتهم ، وينقلبوا خائبين خاسرين ..

أمَّا عن الأمر في هذا النداء بمجاهدة الكفار والمنافقين فقد ذكر العلماء أنَّ تلك المجاهدة في حق الكفار تكون بالقوة إذا ناصبوا العداء للإسلام والمسلمين ، ولم يستجيبوا لأي نصح ولم يقبلوا الجزية فعندئذٍ يؤذن للمسلمين بالجهاد والغلظة عليهم ..

أمَّا مجاهدة المنافقين فتكون بإقامة الحجة والتعريض لهم بنفاقهم .. وهذا يسمى جهاداً على سبيل المجاز كما في قوله ـ ﷺ ـ للذي سأله الجهاد فقال : ألك أبوان . قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد [1] » [2]

والأقرب في تأويل عطف المنافقين على الكفار أن يكون المراد منه " إلقاء الرعب في قلوب المنافقين ليشعروا بأن النبيَّ ـ ﷺ ـ والمؤمنين بالمرصاد منهم فلو بدت من أحدهم بادرة يعلم منها نفاقه عومل معاملة الكافر في الجهاد بالقتل والأسر فيحذروه ويكفوا عن الكيد للمسلمين خشية الافتضاح فتكون هذه الآية من قبيل قوله ـ تعالى ـ ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا [3] ﴾ [4].

---

١ -[سنن أبي داود ٢ ـ ٢١ كتاب الجهاد باب في الرجل يغزو وأبواه كارهان رقم : ٢٥٢٩ قال الشيخ الألباني : صحيح .(ط / دار الفكر تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد مع الكتاب : تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوْت والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها)].

٢ -[ينظر التحرير والتنوير ١٣ ـ ٣٧٢].

٣ -[سورة الأحزاب آية رقم : ٦٠].

٤ -[ينظر التحرير والتنوير ١٣ ـ ٣٧٢].

وإذا كانت الآية الكريمة أعني قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[1]

قد جاءت بلفظها مرتين مرَّة في سورة التوبة ومرَّة في هذه السورة الكريمة فهذا يدلُّ على تأكيد الأمر بمجاهدة هاتين الفئتين من الكفار والمنافقين وعدم القعود عن جهادهم . وذلك لعظم خطرهم وإفسادهم ، وتربصهم الدائم بالإسلام بغية هدمه والقضاء عليه ..

كما أنَّ في مجاهدتهم أداءً للأمانة في وعظهم وإرشادهم قطعاً لأعذارهم.

ومن ثمَّ فالأمر بمجاهدة هؤلاء سواء بالقول أم بالفعل لا يتوقف فقط عند صاحب الرسالة ـ ﷺ ـ وإنَّما الأمر ممتد إلى المؤمنين كما تؤكده آيات أخرى من مثل قوله ـ تعالى ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[2].

وقوله ـ تعالى ـ ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[3].

ولذلك كثرت النداءات للمؤمنين في كتاب الله ـ تعالى ـ للدلالة على أنهم الأصلح لإقامة شرع الله ـ تعالى ـ في أرضه ، وعلى أهمية ما حملوه من أمر الرسالة بعد رسولهم الكريم ـ ﷺ ـ مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... ﴾ الآية [4].

وبعد ،،

فهذه دراسة تحليلية موضوعية حول نداء الله الكريم في سورة التحريم

---

١ -[سورة التحريم آية رقم : ٩].

٢-[سورة التوبة آية رقم : ١٢٣].

٣-[سورة التوبة آية رقم : ٣٦].

٤-[سورة آل عمران آية رقم : ١١٠].

وقد طوفت ــ بقدر الطاقة ــ بالقارئ الكريم حول ما يتصل بهذا الموضوع ..

ولا شك أنّ هناك الكثير والكثير من المعاني المختبئة في النّداء الوارد في كتاب الله ــ تعالى ــ.

وحسبي في هذا الموضوع أني أردت تقريب الصورة التفسيرية والبلاغية لأمر النداء من خلال سورة التحريم .

فإنْ أحسنت فتلك منّةٌ من ربٍّ العالمين ــ سبحانه تعالى ــ وإن كانت ما لا أرجو فحسبي أنّي اجتهدت ،،

والله ولي التوفيق ،

فرغ منه بتاريخ ٧ / ٤ / ٢٠٠٨ م

الموافق ١ ربيع آخر سنة ١٤٢٩ هـ

أهم المراجع

أولاً : كتب التفسير وعلوم القرآن .

ــ أحكام القرآن للجصاص ط / دار الكتب العلمية ــ بيروت .

ــ إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم للإمام أبي السعود . ط – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الرابعة ١٤١٤ هـ ــ ١٩٩٤م .

ــ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي / ط / دار الفكر – بيروت ١٤١٦ هـ ــ ١٩٩٦م

ــ الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لـ/ ابن المنير . على هامش تفسير الكشاف للإمام الزمخشري . ط / دار الفكر .

ــ البحر المحيط لأبي حيان . ط دار الكتب العلمية / بيروت – الأولى ١٤٢٢ هـ ــ ٢٠٠١ م

ــ التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور . ط / دار سحنون للنشر والتوزيع (تونس) .

ــ تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)– ط – الحلبي .

ــ تفسير القرآن الكريم للإمام الأكبر الشيخ / محمود شلتوت / ط / دار الشروق ٢٣ ط ١٢ ٢٠٠٤ م – ١٤٢٤ هـ .

ــ التفسير الحديث للأستاذ / محمد عزة دروزة . ط / دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٨١ هـ.

ــ التفسير التحليلي لسورة النساء الأستاذ الدكتور / إبراهيم عبد الرحمن خليفة . ط – مطبعة الفجر الجديد – الأولى ١٤١٤ هـ ــ ١٩٩٣ م .

ــ تفسير سورة الممتحنة " دراسة تحليلية " د/ عبد البديع أبو هاشم محمد / ط/ أولى ١٤١٨ هـ ــ ١٩٩٧ م بدون ذكر اسم المطبعة .

ــ تناسق الدرر في تناسب السور ، للسيوطي – ط – دار الكتب العلمية – بيروت .

ــ جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري ط – دار الحديث ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م ، والنسخة التي حققها الشيخ محمود شاكر ، ط / دار المعارف بمصر .

ــ الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) طبعة خاصة بترخيص من دار الشعب دار الريان للتراث .

ــ حاشية الصاوي (أحمد بن محمد الخلوتي ، الشهير بالصاوي) على الجلالين ط / الحلبي

ــ حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي ط / المكتبة الإسلامية بديار بكر – بتركيا

ــ حاشية القُونَوي (إسماعيل بن محمد بن مصطفى القُونَوي) على البيضاوي / بيروت .

ــ الدر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ السيوطي . ط – دار الفكر – بيروت – الثانية ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م .

ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الألوسي . ط ـ دار الفكر ـ بيروت ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .

ـ زاد المسير في علوم التفسير ، لـ/ الإمام أبي الفرج الجوزي ـ ط ـ دار الفكر ـ بيروت .

ـ السراج المنير للخطيب الشربيني . دار المعارف بيروت / الثانية بدون تاريخ .

ـ في ظلال القرآن للأستاذ / سيد قطب . ط ـ دار الشروق ـ السابعة والعشرون ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م.

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري . ط ـ دار الفكر .، ط / مكتبة العبيكان / الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ على محمد معوض .

ـ لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن) ط / الحلبي .

ـ المحرر الوجيز للإمام ابن عطية . تحقيق / عبد السلام عبد الشافي محمد ـ ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

ـ مفاتيح الغيب للإمام الرازي . ط ـ دار الغد ـ الأولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م .

ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفي . ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الأولى ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م .

ـ الميزان في تفسير القرآن الشيخ / محمد حسين الطباطبائي بيروت ـ الثانية ـ ١٣٩١هـ ـ ١٩٧٢م.

ـ محاسن التأويل / الشيخ / محمد جمال الدين القاسمي ـ ط ـ

عيسى البابي الحلبي ـ الأولى ـ ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٧٥ م .

ـ نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم / الشيخ محمد الغزالي ط / دار الشروق ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م .

ـ الإتقان في علوم القرآن للحافظ السيوطي ، مكتبة دار التراث ـ القاهرة .

ـ البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي ، مكتبة التراث ، بدون تاريخ .

ـ حجة القراءات لـ/ عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة " أبو زرعة " ـ ط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت / الثانية ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م ،

ـ فتح الخبير في أدوات التفسير للأستاذ الدكتور / سيد مرسي إبراهيم ـ ط / أولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .

ـ معاني القراءات ، لـ/ أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ـ ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .

ـ كتاب معاني القراءات لـ/ أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري . ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .

ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، لـ/ الراغب الأصفهاني . دار الفكر .

ـ الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس . مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة

ثانياً كتب الحديث الشريف وعلومه :

ـ دلائل النبوة للبيهقي . ط ـ دار الريان للتراث ـ الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م . بتحقيق / عبد المعطى قلعجي .

ـ سنن الترمذي ، الإمام / أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي . ط بيروت .

سنن أبي داود ، ط / دار الفكر تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد مع الكتاب : تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوُت والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها .

ـ السنن الزكية في الفضائل النبوية د / سعد سعد جاويش / ط / دار عطوة للطباعة ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

ـ شرح النووي على صحيح مسلم ط / دار إحياء التراث العربي بيروت/الثانية ١٣٩٢هـ.

ـ صحيح البخاري . ط ـ دار ابن كثير ـ بيروت ـ الثالثة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

ـ صحيح مسلم . دار الغد ـ الأولى ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م .

ـ غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم لـ / محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد بن يصل الأزدي الحميدي ط : مكتبة السنة ـ القاهرة ـ ١٤١٥ ـ ١٩٩٥ الطبعة: الأولى تحقيق: الدكتورة : زبيدة محمد سعيد عبد العزيز .

ـ مستدرك الحاكم . دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م .

ـ مسند البزار ، ط / بيروت .

ـ مقدمة ابن الصلاح / مكتبة المتنبي .

ثالثاً : كتب التراجم :

ـ الأعلام لـ/ خير الدين الزركلي . ط ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الثامنة ١٩٨٩ م .

ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، لـ / أبي الحجاج المزي . ط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الأولى ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م . بتحقيق / بشار عواد معروف .

ـ تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني ط ـ دار الفكر ـ بيروت ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

ـ تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني ط ـ دار المعرفة ـ بيروت .

ـ الجرح والتعديل لـ / عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي / حيدر آباد / الهند ـ الأولى ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٢ م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

ـ المعين في طبقات المحدثين لـ / محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي . دار النشر / دار الفرقان ـ عمان ـ الأردن ـ ١٤٠٤ الطبعة : الأولى ت : د همام عبد الرحيم سعيد.

رابعا : كتب اللغة .

ـ الأساليب الإنشائية في النحو العربي / عبد السلام هارون . / ط / دار الجيل / بيروت ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م].

ـ التأويل اللغوي في القرآن الكريم " دراسة دلالية " د / حسين حامد الصالح ـ دار ابن حزم ـ صنعاء بدون .

ـ حاشية الصَّبَّان على الأشموني ، ط / مكتبة الصفا / الأولى ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م .

ـ حاشية الخضري على ابن عقيل / ط / الحلبي .

ـ خزانة الأدب لـ / عبد القادر عمر البغدادي / ط / دار الكتب العلمية بيروت .

ـ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك . ط / الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م.

ـ القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادي . نشر مؤسسة الرسالة ـ الثانية ١٤٠٧ هـ .

ـ كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف لـ/ عبد الرحمن بن محمد الأنباري / ط / دار الفكر .

ـ لسان العرب لابن منظور ـ ط ـ دار صادر ـ بيروت ـ الثالثة ١٤١٤هـ القاهرة .

ـ المطول للعلامة التفتازاني / ط / دار الكتب العلمية / بيروت .
ـ مغني اللبيب لـ/ ابن هشام / ط / المكتبة العصرية / بيروت ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

فهرس عام

الموضوع **رقم الصفحة**

ـ المقدمة ٦٨٥
ـ تعريف النداء وأدواته ٦٨٦
ـ بيان سرّ مجيء النداء في القرآن الكريم بـ(يا) دون بقية أدوات النداء ٦٨٨
ـ السرّ في حذف " يا " في بعض المواضع من القرآن الكريم ٦٩٤
ـ معنى " أي " وحكمة ذكره في النّداء وكذا " هاء " التنبيه وحكمتها ٦٩٦
ـ أنواع النداء في القرآن الكريم ومغزاه ٧٠٣
ـ النوع الأول : نداء الله الناس جميعاً ٧٠٤
ـ النوع الثاني:نداء الشعوب٧٠٥
ـ النوع الثالث : نداء الطوائف..... ٧٠٥
ـ النوع الرابع : نداء الجماعة محدودة العدد ٧٠٦
ـ النوع الخامس : نداء الأشخاص ٧٠٧
ـ إلقاء الضوء على السورة الكريمة من حيث التسمية وسرّها ٧١٣
ـ مكان نزول السورة ٧١٦
ـ عدد آيها ... ٧١٨
ـ عرض السورة بوجه عام٧١٩
- مناسبة السورة لما قبلها ٧٢٠
ـ استعراض النداءات في سورة التحريم ٧٢١
ـ النداء الأول ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) الآية ٧٢٧
ـ النداء الثاني :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ....) الآية ٧٣٣
ـ النداء الثالث :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ الآية ٧٣٩
ـ النداء الرابع " ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ....) الآية ٧٤٢
ـ النداء الخامس (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ الآية ٧٤٦
ـ أهم المراجع ٧٥٢
ـ الفهرس ٧٥٨